

التعليقات المفيدة

(نفائس وبصمات الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى)

على كتاب الأصول الثلاثة وأدلتها

لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب النجدي رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده تعالى ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه و على آله وصحبه وسلم .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُوا إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ) . (آل عمران 102)

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا) . (النساء 1)

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا (71)) . (الأحزاب 70-71)

أما بعد :

فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى ، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم ، وشر الأمور محدثا تها ، وكل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار .

وبعد :

قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه الأصول الثلاثة و أدلتها :

بسم الله الرحمن الرحيم

اعلم رحمك الله أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل (الأولى) العلم وهو معرفة الله ،
ومعرفة نبيه ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة (الثانية) العمل به (الثالثة) الدعوة إليه (الرابعة) الصبر على الأذى فيه :

التعليق :

قال الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

فالجهد أربع مراتب : جهاد النفس ، وجهاد الشيطان ، وجهاد الكفار ، وجهاد المنافقين .

فجهاد النفس أربع مراتب أيضاً:

إحداها: أَنْ يُجَاهِدَهَا عَلَى تَعَلُّمِ الْهُدَى، ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها
ومعادها إلا به، ومتى فا تها علمه، شقيت في الدارين.

الثانية : أن يُجَاهِدَهَا عَلَى الْعَمَلِ بِهِ بَعْدَ عِلْمِهِ، وَإِلَّا فمَجْرَدُ الْعِلْمِ بِلَا عَمَلٍ إِنْ لَمْ يَضُرَّهَا لَمْ
يَنْفَعَهَا.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه مَنْ لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتُمون ما أنزل الله من الهدى والبيان، ولا ينفعه علمه، ولا يُنجيه من عذاب الله.

الرابعة : أن يُجاهدها على الصبر على مشاقّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمّل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الرّبّانيين، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العالمَ لا يَسْتَحِقُّ أن يُسمى ربّانياً حتى يعرفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعلِّمه، فمن علم وَعَمِلَ وَعَلَّمَ فذاك يُدعى عظيماً في ملكوتِ السموات).

[زاد المعاد: 11/3] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

والدليل : قوله تعالى (بسم الله الرحمن الرحيم) والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين ءامنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) قال الشافعي رحمه الله تعالى : لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم .

التعليق :

قال ابن القيم :

الوجه السادس والثلاثون قوله تعالى (والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) قال الشافعي رضي الله عنه لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم وبيان ذلك أن المراتب أربعة : وباستكمالها يحصل للشخص غاية كماله .

إحداها معرفة الحق الثانية عمله به الثالثة تعليمه من لا يحسنه الرابعة صبره على تعلمه والعمل به وتعليمه فذكر تعالى المراتب الأربعة في هذه السورة وأقسم سبحانه في هذه السورة بالعصر أن كل أحد في خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم الذين عرفوا الحق وصدقوا به فهذه مرتبة وعملوا الصالحات وهم الذين عملوا بما علموه من الحق فهذه مرتبة أخرى وتواصوا بالحق وصى به بعضهم بعضا تعليما وإرشادا فهذه مرتبة ثالثة وتواصوا بالصبر صبروا على الحق ووصى بعضهم بعضا بالصبر عليه والثبات فهذه مرتبة رابعة وهذا نهاية الكمال فإن الكمال أن يكون الشخص كاملا في نفسه مكملا لغيره وكماله بإصلاح قوته العلمية والعملية فصلاح القوة العلمية بالإيمان وصلاح القوة العملية بعمل الصالحات وتكميله غيره بتعليمه إياه وصبره عليه وتوصيته بالصبر على العلم والعمل فهذه السورة على اختصارها هي من اجمع سور القرآن للخير بحذايره والحمد لله الذي جعل كتابه كافيا عن كل ما سواه شافيا من كل داء هاديا إلى كل خير) . [مفتاح دار السعادة : 72] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وقال البخاري رحمه الله تعالى (جزء 1 صفحة 45) (باب) " العلم قبل القول والعمل ، والدليل قوله تعالى (فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك) فبدأ بالعلم قبل القول والعمل " .

التعليق :

قال ابن القيم :

وقال تعالى (فاعلم انه لا اله إلا الله) فالعلم بوحديته تعالى وأنه لا إله إلا هو مطلوب لذاته وإن كان لا يكتفي به وحده بل لا بد معه من عبادته وحده لا شريك له فهما أمران مطلوبان لأنفسهما أن يعرف الرب تعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وأن يعبد بموجبها ومقتضاها فكما أن عبادته مطلوبة مراده لذا تها فكذلك العلم به ومعرفته . [مفتاح دار السعادة :213] .

وقال :

والذي يحقق ذلك أن اليهود إنما أتوا من فساد الإرادة والحسد وإيثار ما كان لهم على قومهم من السحت والرياسة فخافوا أن يذهب بالإسلام فلم يؤتوا من عدم العلم بالحق فإي أنهم كانوا يعرفون أن محمداً رسول الله كما يعرفون أبناءهم ولهذا لم يوبخهم الله تعالى ويقرعهم إلا بإرادا تهم الفاسدة من الكبر والحسد وإيثار السحت والبغي وقتل الأنبياء .

ووبخ النصارى بالضلال والجهل الذي هو عدم العلم بالحق فالشقاء والكفر ينشأ من عدم معرفة الحق تارة ومن عدم إرادته والعمل بها أخرى يتركب منها فكفر اليهود نشأ من عدم إرادة الحق والعمل به وإيثار غيره عليه بعد معرفته فلم يكن ضلالاً محضاً وكفر النصارى نشأ من جهلهم بالحق وضلالهم فيه فإذا تبين لهم وآثروا الباطل عليه أشبهوا الأمة الغضبية وبقوا مغضوباً عليهم ضالين .

ثم لما كان الهدى والفلاح والسعادة لا سبيل إلى نبيله إلا بمعرفة الحق وإيثاره على غيره وكان الجهل يمنع العبد من معرفته بالحق والبغي يمنعه من إرادته كان العبد أحوج شيء إلى أن يسأل الله تعالى كل وقت أن يهديه الصراط المستقيم تعريفاً وبياناً وإرشاداً وإلهاماً وتوفيقاً وإعانة فيعلمه ويعرفه ثم يجعله مريداً له قاصداً لإتباعه فيخرج بذلك عن طريقة المغضوب عليهم

الذين عدلوا عنه على عمد وعلم والضالين الذين عدلوا عنه عن جهل وضلال) . [بدائع
الفوائد :325-326] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

(اعلم) رحمك الله أنه يجب على كل مسلم ومسلمة تعلم هذه الثلاث مسائل
والعمل بهن :

الأولى : أن الله خلقنا ورزقنا ولم يتركنا هملاً بل أرسل إلينا رسولاً فمن أطاعه دخل
الجنة ومن عصاه دخل النار ، والدليل قوله تعالى : (إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً
عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً) .
[المزمل : آية 15] .

التعليق :

قال ابن القيم :

وباعث الرسل مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل إذ لم يخلقهم
عبثاً ولم يتركهم سدى ولم يغفلهم هملاً بل خلقهم لأمر عظيم وهياهم لخطب جسيم وعمر
لهم دارين فهذه لمن أجاب الداعي ولم ييغ سوى ربه الكريم بدلاً وهذه لمن لم يجب دعوته ولم
يرفع بها رأسولم يعلق بها أملاً والحمد لله الذي رضي من عباده باليسير من العمل وتجاوز
لهم عن الكثير من الزلل وأفاض عليهم النعمة وكتب على نفسه الرحمة وضمن الكتاب الذي
كتبه أن رحمته سبقت غضبه دعا عباده إلى دار السلام فعمهم بالدعوة حجة منه عليهم
وعدلاً وخص بالهداية والتوفيق من شاء نعمة ومنه وفضلاً فهذا عدله وحكمته وهو العزيز
الحكيم وذلك فضله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) . [حادي الأرواح : 11] .

وقال :

ومنه قوله تعالى (إنا أرسلنا إليكم رسولا شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً فعصى فرعون الرسول فأخذناه أخذاً وبيلاً) فأخبر سبحانه أنه أرسل محمداً - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إلينا كما أرسل موسى إلى فرعون و أن فرعون عصى رسوله فأخذه أخذاً وبيلاً فهكذا من عصى منكم محمداً صلى الله عليه وعلى آله وسلم) . [إعلام الموقعين 1:107] .

وقال :

وكذلك قوله تعالى (إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلى فرعون رسولاً) . [المزمل: 15] أي كيف يقع الإنكار منكم وقد تقدم قبلكم رسل مني مبشرين ومنذرين وقد علمتم حال من عصى رسلي كيف أخذ تم أخذاً وبيلاً) . [جلاء الأفهام :348] .

قال محمد بن عبد الوهاب:

الثانية : أن الله لا يرضى أن يشرك معه في عبادته أحد لا ملك مقرب و لا نبي مرسل ، والدليل قوله تعالى : (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً) [الجن آية 18] .

التعليق :

قال ابن القيم :

فالسجود والعبادة والتوكل والإنابة والتقوى والخشية والتحسب والتوبة والنذر والحلف والتسبيح والتكبير والتهليل والتحميد والاستغفار وحلق الرأس خضوعاً وتعبداً والطواف بالبيت والدعاء كل ذلك محض حق الله لا يصلح ولا ينبغي لسواه من ملك مقرب ولا نبي مرسل) . [الجواب الكافي :207] .

وقال :

أنه لا يرضى من القول والعمل إلا التوحيد وإتباع الرسول وعن هاتين الكلمتين يسأل الأولين والآخرين كما قال أبو العالية : (كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون : ماذا كنتم تعبدون وماذا أجبتم المرسلين) . [مدارج السالكين : 245] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

الثالثة : أن من أطاع الرسول ووجد الله لا يجوز له موالاته من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب ، والدليل قوله تعالى : (لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه ويدخلهم جنات تجري من تحتها النهار خالدين فيها رضي الله عنهم ورضوا عنه أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون) المجادلة .22

قال ابن القيم :

ومن تحقيق هذا الفناء أن لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا فيه ولا يوالي إلا فيه ولا يعادي إلا فيه ولا يعطي إلا له ولا يمنع إلا له ولا يرجو إلا إياه ولا يستعين إلا به فيكون دينه كله ظاهراً وباطناً لله ويكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما فلا يواد من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب الخلق إليه بل :

يعادي الذي عادي من الناس كلهم ... جميعاً ولو كان الحبيب المصافياً (بحر الطويل) .

[مدارج السالكين : 125] .

وقال :

والمقصود أن الشرك لما كان أظلم الظلم وأقبح القبائح وأنكر المنكرات كان أبغض الأشياء إلى الله تعالى وأكرها له وأشدّها مقتاً لديه ورتب عليه من عقوبات الدنيا والآخرة ما لم يرتبه على ذنب سواه وأخبر أنه لا يغفره وأن أهله نجس ومنعهم من قربان حرمه وحرّم ذبائحهم ومناكحتهم وقطع الموالاة بينهم وبين المؤمنين وجعلهم أعداء له سبحانه وملائكته ورسله وللمؤمنين وأباح لأهل التوحيد أموالهم ونساءهم وأبناءهم وأن يتخذوهم عبيداً وهذا لأن الشرك هضم لحق الربوبية وتنقيص لعظمة الإلهية وسوء ظن برب العالمين ([إغاثة اللهفان 101/1] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

اعلم أرشدك الله لطاعته أن الحنيفية ملة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدين وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها كما قال تعالى : (وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون) ومعنى يعبدون يوحدوني، وأعظم ما أمر الله به التوحيد ، وهو إفراد الله بالعبادة . وأعظم ما نهى الله عنه الشرك وهو دعوة غيره معه والدليل قوله تعالى : (واعبدوا الله و لا تشركوا به شيئاً) .

قال ابن القيم :

ثم أمرهم بلزوم ملة إمام الحنفاء أبيهم إبراهيم وهي إفراده تعالى وحده بالعبودية والتعظيم والحب والخوف والرجاء والتوكل والإنابة والتفويض والاستسلام فيكون تعلق ذلك من قلوبهم به وحده لا بغيره ([إعلام الموقعين: 4/102] .

وقال :

والحنيف المقبل على الله المعرض عما سواه ومن فسره بالمائل فلم يفسره بنفس موضوع اللفظ
وإنما فسره بلازم المعنى فإن الحنف هو الاقبال ومن أقبل على شيء مال عن غيره)

[جلاء الأفهام : 332]

وقال :

وقال أكثر العلماء : الحنيف المخلص .

وقال الله عز و جل (ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً) وقال تعالى
(ملة إبراهيم حنيفاً مسلماً) وقال (ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل) وقال
الشاعر وهو الراعي :

أخليفة الرحمن إنا معشر ... حنفاء نسجد بكرة وأصيلا

عرب نرى لله في أموالنا ... حق الزكاة منزلاً تنزيلاً) . [شفاء العليل : 398] .

وقال :

وقال (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي
عبادته التي أصلها كمال محبته وهو سبحانه كما أنه يجب أن يعبد يجب أن يحمد ويثنى عليه
ويذكر بأوصافه العلى وأسمائه الحسنى كما قال النبي في الحديث الصحيح (لا أحد أحب إليه
المدح من الله ومن أجل ذلك أثنى على نفسه) وفي المسند من حديث الأسود بن سريع أنه
قال : يا رسول الله إني حمدت ربي بمحامد فقال إن ربك يحب الحمد). [طريق الهجرتين :
288] .

وقال :

قوله (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فالعبادة هي الغاية التي خلق لها الجن والإنس والخلائق كلها) . [مدارج السالكين : 77] .

وقال :

والإخلاص أن يخلص لله في أفعاله وأقواله وإرادته ونيته وهذه هي الحنيفية ملة إبراهيم التي أمر الله بها عباده كلهم ولا يقبل من أحد غيرها وهي حقيقة الإسلام كما قال تعالى (ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين) وهي ملة إبراهيم عليه السلام التي من رغب عنها فهو من أسفه السفهاء) . [الجواب الكافي : 208] .

الأصل الأول

معرفة العبد ربه

قال محمد بن عبد الوهاب :

فإذا قيل لك : ما الأصول الثلاثة التي يجب على الإنسان معرفتها؟ فقل : معرفة العبد ربه، ودينه، ونبيه محمداً صلى الله عليه وسلم .

التعليق :

قال ابن القيم :

فاقتضت رحمة العزيز الرحيم أن بعث الرسل به معرفين وإليه داعين ولمن أجا بهم مبشرين ومن خالفهم بنذرين وجعل مفتاح دعوهم وزبدة رسالتهم معرفة المعبود سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله إذ على هذه المعرفة تنبني مطالب الرسالة جميعها وإن الخوف والرجاء والمحبة والطاعة والعبودية تابعة لمعرفة المرجو المخوف المحبوب المطاع المعبود .

ولما كان مفتاح الدعوة الإلهية معرفة الرب تعالى قال أفضل الداعين إليه سبحانه لمعاذ بن جبل وقد أرسله إلى اليمن إنك ستأتي قوما أهل كتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة ألا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فإذا عرفوا الله فأخبرهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة وذكر باقي الحديث وهو في الصحيحين وهذا اللفظ لمسلم .

فأساس دعوة الرسل صلوات الله وسلامه عليهم معرفة الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله ثم يتبع ذلك أصلاً عظيماً :

أحدهما : تعريف الطريق الموصلة إليه وهي شريعته المتضمنة لأمره و نهييه .

الثاني : تعريف السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم الذي لا ينفد وقرّة العين التي لا تنقطع .

وهذان الأصلاً تابعان للأصل الأول ومبنيان عليه فأعرف الناس بالله أتبعهم للطريق الموصول إليه وأعرفهم بحال السالكين عند القدوم عليه) . [الصواعق المرسلّة : 10-11] .
وقال :

ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل) .

[زاد المعاد 47/1] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

فإذا قيل لك: مَنْ رَبُّكَ؟ فقل: ربِّي الله الذي ربّاني وربّي جميع العالمين بنعمه، وهو
معبودي ليس لي معبودٌ سواه، والدليل قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وكلُّ ما
سوى الله عالم وأنا واحدٌ من ذلك العالم.

التعليق :

قال ابن القيم :

ثم قال (اعبدوا ربكم) فلهم بعبادة ر بهم وفي ضمن هذه الكلمة البرهان القطعي على
وجوب عبادته لأنه إذا كان ربنا الذي يربينا بنعمه وإحسانه وهو مالك ذاتنا ورقابنا وأنفسنا
وكل ذرة من العبد فمملوكه له ملكا خالصا حقيقياً وقد رباه بإحسانه إليه وإنعامه عليه
فعبادته له وشكره إياه واجب عليه ولهذا قال (اعبدوا ربكم) ولم يقل إلهكم والرب هو
السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء
أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له . [بدائع
الفوائد:1175] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

فإذا قيل لك: بم عرفت ربك؟ فقل: بآياته ومخلوقاته؛ ومن آياته الليل والنهار
والشمس والقمر، ومن مخلوقاته السموات السبع والأرضون السبع ومن فيهن وما
بينهما، والدليل قوله تعالى: ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا
للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾ [فصلت:37]،
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ
أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾ . [الأعراف:54].

التعليق :

قال ابن القيم :

والمقصود أن الله سبحانه يشهد بما جعل آياته المخلوقة دالة عليه فإن دلالتها إنما هي بخلقه
وجعله ويشهد بآياته القولية الكلامية المطابقة لما شهدت به آياته الخلقية فتتطابق شهادة
القول وشهادة الفعل كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه
الحق) أي أن القرآن حق فأخبر أنه يدل بآياته الأفقية والنفسية على صدق آياته القولية
الكلامية وهذه الشهادة الفعلية قد ذكرها غير واحد من أئمة العربية والتفسير قال ابن كيسان
شهد الله بتدبيره العجيب وأموره المحكمة عند خلقه أنه لا إله إلا هو) . [مدارج السالكين :
1079-1080] .

وقال :

أما الاستدلال بقوله تعالى (فلا أقسم بالخنس ، الجوار الكنس) [التكوير : 15-16] فإن
أكثر المفسرين على أن المراد هو الكواكب التي تسير راجعة تارة ومستقيمة أخرى ... إلى أن
قال :

نأ يكون الله سبحانه وتعالى قد أقسم بما كما أقسم بالليل والنهار والضحى والوالد والفجر
وليال عشر والشفع والوتر والسماء والأرض واليوم الموعود وشاهد ومشهود والنفس
والمرسلات والعاصفات والناشرات والفارقات والنازعات والناشطات والساجحات والسابقات
وما نبصره وما لا نبصره من كل غائب عنا وحاضر مما فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزته
وحكمته وقدرته وتدبيره وتنوع مخلوقاته الدالة عليه المرشدة إليه بما تضمنته من عجائب

الصنعة وبديع الخلقه وتشهد لفاطرها وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشئته وحكمته وربوبيته وملكوته وأنها مسخرة مذلة منقادة لأمره مطيعة لمراده منها ففي الإيمان بها تعظيم لخالقها تبارك وتعالى وتنزيه له عما نسبه إليه أعداؤه الجاحدون المعطلون لربوبيته وقدرته ومشئته ووحدانيته وإن من هذه عبيده ومماليكه وخلقه وصنعه وإبداعه فكيف تجحد ربوبيته وإلهيته وكيف تنكر صفات كماله ونعوت جلاله وكيف يسوغ لذي حس سليم وفطرة مستقيمة تعطيلها عن صانعها أو تعطيل صانعها عن نعوت جلاله وأوصاف كماله وعن أفعاله فأقسامه بها أكبر دليل على فساد قول نوعي المعطلة والمشركين الذين جعلوها آلهة تعبد مع دلائل الحدوث والعبودية والتسخير والافتقار عليها وأنها أدلة على بارئها وفاطرها وعلى وحدانيته وأنه لا تنبغي الربوبية والإلهية لها بوجه ما بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبرأها كما قال القائل :

تأمل سطور الكائنات فيا... إلى الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

وقال آخر :

فوا عجباً كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده جاحد

لله في كل تحريكة ... وتسكينة أبداً شاهد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

فلم يكن إقسامه بها سبحانه مقررًا بذلك علم الأحكام النجومية كما يقوله الكاذبون المفترون بل مقررًا لكمال ربوبيته ووحدانيته وتفردته بالخلق والإبداع وكمال حكمته وعلمه وعظمته . وهذا نظير إخباره سبحانه عن خلقها وعن حكمة خالقها بقوله (الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لتعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن

الله قد أحاط بكل شيء علما) وقوله (وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون) وقوله (ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون) وقوله (إن ربكم الله الذي خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثا والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين) وقوله (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) .
[مفتاح دار السعادة : 544-545] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

والرب هو المعبود، والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (21)﴾ (الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: 21-22]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة.

التعليق :

قال ابن القيم :

فإن الأدلة قد دلت على أنه سبحانه وحده المستحق للعبادة فإذا أخبر أنه هو وحده المستحق للعبادة تضمن هذا الإخبار أمر العباد وإلزامهم بأداء ما يستحقه الرب تعالى عليهم وأن القيام بذلك هو خالص حقه عليهم فإذا شهد سبحانه أنه لا إله إلا هو تضمنت شهادته الأمر والإلزام بتوحيده . [مدارج السالكين: 1080] .

وقال :

والله وحده هو المعبود المألوه الذي لا يستحق العبادة سواه ورسوله المطاع المتبع المهتدى به الذي لا يستحق الطاعة سواه ومن سواه وإنما يطاع إذا أمر الرسول بطاعته فيطاع تبعاً للأصل وبالجملة فالطريق مسدودة إلا على من اقتفى آثار الرسول واقتدى به في ظاهره وباطنه فلا يتعنى السالك على غير هذا الطريق فليس حظه من سلوكه إلا التعب وأعماله (كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) ولا يتعنى السالك على غير هذا الطريق فإنه واصل ولو زحف زحفاً فأتباع الرسول إذا قعدت بهم أعمالهم قامت بهم عزائمهم وهمهم ومتابعتهم لنبئهم كما قيل :
من لي بمثل سيرك المدلل ... تمشي رويداً وتجي في الأول) . [مدارج السالكين : 854-855] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وأَنواع العبادة التي أمر الله بها: مثل الإسلام، والإيمان، والإحسان؛ ومنه الدعاء،
والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرغبة، والخشوع، والخشية، والإنابة،
والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي
أمر الله بها كلها لله تعالى، والدليل قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ
أَحَدًا﴾ [الجن:18].

التعليق :

قال ابن القيم :

وروح هذه الكلمة وسرها أفراد الرب جل ثناؤه وتقدست أسماؤه وتبارك اسمه وتعالى جده ولا
إله غيره بالمحبة والإجلال والتعظيم والخوف والرجاء وتوابع ذلك من التوكل والإنابة والرغبة
والرهبة فلا يحب سواه بل وكل ما يحب غيره فإنما هو تبعاً لمحبتة وكونه وسيلة إلى زيادة محبتة
ولا يخاف سواه ولا يرجو سواه ولا يتوكل إلا عليه ولا يرغب إلا إليه ولا يرهب إلا منه ولا
يخلف إلا باسمه ولا ينذر إلا له ولا يتاب إلا إليه ولا يطاع إلا أمره ولا يتحسب إلا به ولا
يستعان في الشدائد إلا به ولا يلتجئ إلا إليه ولا يسجد إلا له ولا يذبح إلا له وباسمه و
يجتمع ذلك كله في حرف واحد وهو أن لا يعبد إلا إياه بجميع أنواع العبادة فهذا هو تحقيق
شهادة أن لا إله إلا الله . [الجواب الكافي : 301].

قال محمد بن عبد الوهاب :

فمن صرف منها شيئاً لغير الله فهو مشرك كافر، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ

الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: 117]، وفي الحديث ((الدعاء مخ العبادة)) ()

والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: 60].

التعليق :

قال ابن القيم :

فالغاية الحميدة التي يحصل بها كمال بني آدم وسعادتهم ونباحهم هي معرفة الله ومحبتة وعبادته وحده لا شريك له وهي حقيقة قول العبد لا اله إلا الله و بها بعث الرسل ونزلت جميع الكتب ولا تصلح النفس ولا تزكو إلا بذلك قال تعالى (وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة) أي لا يؤتون ما تركى به أنفسهم من التوحيد و الإيمان ولهذا فسرهما غير واحد من السلف بأن قالوا لا يأتون الزكاة لا يقولون لا اله إلا الله وحده لا شريك له وأن يكون الله أحب إلى العبد من كل ما سواه هو أعظم وصيحاءات بها الرسل ودعوا إليها الأمم وسنبين أن شاء الله عن قريب بالبراهين الشافية أن النفس ليس لها نجات ولا سعادة ولا كمال إلا بأن يكون الله وحده محبو بها و معبودها لا أحب إليها منه ولا آثر عندها من مرضاته و التقرب إليه وأن النفس محتاجة بل مضطرة إليه حيث هو معبودها و محبو بها وغاية مرادها أعظم من اضطرارها إليه من حيث هو ر بها وخالقها وفاطرها ولهذا كان من آمن بالله خالقه ورازقه وربّه ومليكه ولم يؤمن بأنه لا اله يعبد ويخشى ويخاف غيره بل أشرك معه في عبادته غيره فهو كافر به مشرك شركا لا يغفره الله له كما قال تعالى (إن الله لا يغفر أن يشرك به) . [مفتاح دار السعادة : 473] .

وقال :

فصل

أنواع الدعاء

قوله عز و جل (ادعوا ربكم تضرعا وخفية إنه لا يحب المعتدين) ، (ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفا وطمعا إن رحمة الله قريب من المحسنين)

هاتان الآيتان مشتملتان على آداب نوعي الدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة فإن الدعاء في القرآن يراد به هذا تارة وهذا تارة ويراد به مجموعهما وهما متلازمان فإن دعاء المسألة هو طلب ما ينفع الداعي وطلب كشف ما يضره أو دفعه وكل من يملك الضر والنفع فإنه هو المعبود حقا والمعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضر ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرا ولا نفعا .

وذلك كثير في القرآن كقوله تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم) وقوله تعالى (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) وقوله تعالى (قل أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضرا ولا نفعا والله هو السميع العليم) وقوله تعالى (أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئا ولا يضركم أف لكم ولما تعبدون من دون الله) وقوله تعالى (واتل عليهم نبأ إبراهيم إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين قال هل يسمعونكم إذ تدعون أو ينفعونكم أو يضرون) وقوله تعالى (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ولا يملكون موتا ولا حياة ولا نشورا)

وقال تعالى (ويعبدون من دون الله ما لا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيرا)

فنفى سبحانه عن هؤلاء المعبودين من دونه النفع والضرر القاصر والمتعدي فلا يملكونه لأنفسهم ولا لعابديهم .

وهذا في القرآن كثير بين أن المعبود لا بد أن يكون مالكا للنفع والضرر فهو يدعى للنفع والضرر دعاء المسألة ويدعى خوفا ورجاء دعاء العبادة فعلم أن النوعين متلازمان فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة .

وعلى هذا فقوله تعالى (إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداعي إذا دعان) يتناول نوعي الدعاء وبكل منهما فسرت الآية قيل أعطيه إذا سألتني وقيل أثيبه إذا عبدني والقولان متلازمان) . [بدائع الفوائد: 630-631] .

وقال :

وعلى هذا فالمراد به نوعا الدعاء وهو في دعاء العبادة أظهر أي ما يعبأ بكم ربي لولا أنكم تعبدونه وعبادته تستلزم مسألته فالنوعان داخلان فيه ومن ذلك قوله تعالى (وقال ربكم ادعوني أستجب لكم) فالدعاء يتضمن النوعين وهو في دعاء العبادة أظهر ولهذا عقبه بقوله (إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) .

فسر الدعاء في هذه الآية بهذا وهذا وقد روى سفيان عن منصور عن زر عن يسيع الكندي عن النعمان بن بشير قال سمعت رسول الله يقول على المنبر إن الدعاء هو العبادة ثم قرأ (ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) . رواه الترمذي صحيح وقال حديث حسن صحيح) . [بدائع الفوائد: 632] .

وقال :

ولقد جرد السلف الصالح التوحيد وحموا جانبه حتى كان أحدهم إذا سلم على النبي - صلى الله عليه وعلى ءاله وسلم - ثم أراد الدعاء استقبل القبلة وجعل ظهره إلى جدار القبر ثم دعا .

فقال سلمة بن وردان : رأيت أنس بن مالك رضي الله عنه يسلم على النبي - صلى الله عليه وعلى ءاله وسلم - ثم يسند ظهره إلى جدار القبر ثم يدعو .

ونص على ذلك الأئمة الأربعة : أنه يستقبل القبلة وقت الدعاء حتى لا يدعو عند القبر فإن الدعاء عبادة . وفي الترمذي وغيره مرفوعا (الدعاء هو العبادة) .

فجرد السلف العبادة لله ولم يفعلوا عند القبور منها إلا ما أذن فيه رسول الله من السلام على أصحابها بالاستغفار لهم والترحم عليهم) . [إغاثة اللهفان : 363/1-365] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الخوف قوله تعالى : ﴿ فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران:175].

التعليق :

قال ابن القيم :

ومن منازل (إياك نعبد و إياك نستعين) : منزلة " الخوف " .

وهي من أجل منازلها و أنفعها للقلب ، وهي فرض على كل أحد ، قال الله تعالى : (فلا تخافوهم و خافون إن كنتم مؤمنين) ، وقال تعالى : (و إياي فارهبون) ، وقال : (فلا تخشوا الناس واخشون) . [مدارج السالكين : 362] .

وقال :

وقال (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) آل عمران 175 ، أي يخوفكم بأوليائه ويعظمهم في صدوركم فلا تخافوهم و أفردوني بالمخافة أكفكم إياهم) . [بدائع الفوائد : 583].

وقال :

أن الخوف أحد أركان الإيمان والإحسان الثلاثة التي عليها مدار مقامات السالكين جميعها وهي الخوف والرجاء والمحبة وقد ذكره سبحانه في قوله (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ر بهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه) .

فجمع بين المقامات الثلاثة فإن ابتغاء الوسيلة إليه هو التقرب إليه بحبه وفعل ما يحبه ثم يقول ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

فذكر الحب والخوف والرجاء والمعنى إن الذين تدعو نهم من دون الله من الملائكة والأنبياء والصالحين يتقربون إلى ر بهم ويخافونه ويرجونهم فهم عبيده كما أنكم عبيده فلماذا تعبدونهم من دونه وأنتم وهم عبيد له وقد أمر سبحانه بالخوف منه في قوله (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) .

فجعل الخوف منه شرطاً في تحقيق الإيمان وإن كان الشرط داخلاً في الصيغة على الإيمان فهو المشروط في المعنى والخوف شرط في حصوله وتحقيقه وذلك لأن الإيمان سبب الخوف الحاصل عليه وحصول المسبب شرط في تحقيق السبب كما أن حصول السبب موجب لحصول مسببه فانتفاء الإيمان عند انتفاء الخوف للمشروط عند انتفاء شرطه وانتفاء الخوف عن انتفاء الإيمان انتفاء للمعلول عند انتفاء علته فتدبره .

والمعنى إن كنتم مؤمنين فخافوني والجزاء محذوف مدلول عليه بالأول عند سيبويه وأصحابه أو هو المتقدم نفسه وهو جزاء وإن تقدم كما هو مذهب الكوفيين وعلى التقديرين فأداة الشرط قد دخلت على السبب المقتضي للخوف وهو الإيمان وكل منهما مستلزم للآخر لكن الاستلزام مختلف وكل منهم منتف عند انتفاء الآخر لكن جهة الانتفاء مختلفة كما تقدم .
والمقصود أن الخوف من لوازم الإيمان وموجباته فلا يختلف عنه) . [طريق المهجرتين :336-337] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:110].

التعليق :

قال ابن القيم :

قال الله تعالى : (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ر بهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجعون رحمته ويخافون عذابه) الإسراء : 57 فابتغاء الوسيلة إليه : طلب القرب منه بالعبودية والمحبة فذكر مقامات الإيمان الثلاثة التي عليها بناؤه : الحب والخوف والرجاء قال تعالى : (من كان يرجو لقاء الله فإن أجل الله لآت) العنكبوت : 5 وقال : (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) الكهف : 110 وقال تعالى : (أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) البقرة : 218

وفي صحيح مسلم عن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - يقول قبل موته بثلاث : (لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بره) وفي الصحيح عنه - عليه الصلاة والسلام - : يقول الله عز و جل : أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء) .

الرجاء : حاد يحدو القلوب إلى الله والدار الآخرة ويطيب لها السير .

وقيل : هو الاستبشار بجود وفضل الرب تبارك وتعالى والارتياح لمطالعة كرمه سبحانه وقيل :
هو الثقة بجود الرب تعالى) . [مدارج السالكين : 398-399] .

وقال :

فوائد الرجاء

وأما قوله : " إن التنزيل نطق به لفائدة واحدة : وهي كونه يبرد حرارة الخوف " .

فيقال : بل لفوائد كثيرة أخرى سوى هذه : منها : إظهار العبودية والفاقة والحاجة إلى ما
يرجوه من ربه ويستشرفه من إحسانه وأنه لا يستغني عن فضله وإحسانه طرفة عين .
ومنها : أنه سبحانه يحب من عباده أن يؤملوه ويرجوه ويسألوه من فضله لأنه المملك الحق
الجواد أجود من سئل وأوسع من أعطى وأحب ما إلى الجواد : أن يرجى ويؤمل ويسأل وفي
الحديث : من لم يسأل الله يغضب عليه .

والسائل راج وطالب فمن لم يرج الله يغضب عليه .

فهذه فائدة أخرى من فوائد الرجاء وهي التخلص به من غضب الله .

ومنها : أن الرجاء حاد يحدو به في سيره إلى الله ويطيب له المسير ويحثه عليه ويبعثه على
ملازمته فلولا الرجاء لما سار أحد فإن الخوف وحده لا يحرك العبد وإنما يحركه الحب ويزعجه
الخوف ويجدوه الرجاء .

ومنها : أن الرجاء يطرحه على عتبة المحبة ويلقيه في دهليزها فإنه كلما اشتد رجاءه وحصل
له ما يرجوه ازداد حبا لله تعالى وشكرا له ورضى عنه .

ومنها : أنه يبعثه على أعلى المقامات وهو مقام الشكر الذي هو خلاصة العبودية فإنه إذا
حصل له مرجوه كان ذلك أدعى لشكره .

ومنها : أنه يوجب له المزيد من معرفته بالله وأسمائه ومعانيها والتعلق بها فإن الراجي متعلق
بأسمائه الحسنی متعلبا وداع بها قال الله تعالى : (لله الأسماء الحسنی فادعوه بها)

الأعراف : 80 فلما ينبغي أن يعطل دعاؤه بأسمائه الحسنی التي هي أعظم ما يدعو بها
الداعي فالقدح في مقام الرجاء تعطيل لعبودية هذه الأسماء وتعطيل للدعاء بها .

ومنها : أن المحبة لا تنفك عن الرجاء كما تقدم فكل واحد منهما يمد الآخر ويقويه .

ومنها : أن الخوف مستلزم للرجاء والرجاء مستلزم للخوف فكل راج خائف وكل خائف راج ولأجل هذا حسن وقوع الرجاء في موضع يحسن فيه وقوع الخوف قال الله تعالى : (مالكم لا ترجون لله وقارا) نوح : 13 قال كثير من المفسرين : المعنى مالكم لا تخافون الله عظمة قالوا : والرجاء بمعنى الخوف .

والتحقيق : أنه ملازم له فكل راج خائف من فوات مرجوه والخوف بلا رجاء يأس وقنوط وقال تعالى : (قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون أيام الله) الجاثية : 14 قالوا في تفسيرها لا يخافون وقائع الله بهم كوقائعه بمن قبلهم من الأمم .

ومنها : أن العبد إذا تعلق قلبه برجاء ربه فأعطاه ما رجاه : كان ذلك ألطف موقعا وأحلى عند العبد وأبلغ من حصول ما لم يرجه وهذا أحد الأسباب والحكم في جعل المؤمنين بين الرجاء والخوف في هذه الدار فعلى قدر رجائهم وخوفهم يكون فرحهم في القيامة بحصول مرجوهم واندفاع مخوفهم .

ومنها : أن الله سبحانه وتعالى يريد من عبده تكميل مراتب عبوديته : من الذل والانكسار والتوكل والاستعانة والخوف والرجاء والصبر والشكر والرضى والإنابة وغيرها ولهذا قدر عليه الذنب وابتلاه به لتكامل مراتب عبوديته بالتوبة التي هي من أحب عبوديات عبده إليه فكذا تكميلها بالرجاء والخوف .

ومنها : أن في الرجاء من الانتظار والترقب والتوقع لفضل الله ما يوجب تعلق القلب بذكره ودوام الالتفات إليه بملاحظة أسمائه وصفاته وتنقل القلب في رياضها الأنيقة وأخذه بنصيبه من كل اسم وصفة كما تقدم بيانه فإذا فني عن ذلك وغاب عنه فاته حظه ونصيبه من معاني هذه الأسماء والصفات .

إلى فوائد أخرى كثيرة يطالعها من حسن تأمله وتفكره في استخراجها وبالله التوفيق) .

[مدارج السالكين : 409-411] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل التوكل قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: 23]، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: 3].

التعليق :

قال ابن القيم :

وشرط في إيما أنهم أن يكونوا متوكلين و المعلق على الشرط يعدم عند عدمه .

وهذا يدل على انتفاء الإيمان عند انتفاء التوكل فمن لا توكل له : لا إيمان له قال الله تعالى :

(وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) المائدة : 23 وقال تعالى : (وعلى الله فليتوكل

المؤمنون) وقال تعالى : (فما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم

آياته زادتهم إيمانا وعلى ر بهم يتوكلون) الأنفال : 2 وهذا يدل على انحصار المؤمنين فيمن

كان بهذه الصفة) . [مدارج السالكين : 468].

وقال :

فإن قلت : فما معنى التوكل والاستعانة ؟

قلت : هو حال للقلب ينشأ عن معرفته بالله تعالى والإيمان بتفردده بالخلق والتدبير والضر

والنفع والعطاء والمنع وأنه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس وما لم يشأ لم يكن وإن شاءه الناس

فيوجب له هذا اعتماداً عليه وتفويضاً إليه وطمأنينة به وثقة به و يقيناً بكفايته لما توكل عليه

فيه وأنه ملبى به ولا يكون إلا بمشيئته شاءه الناس أم أبوه) . [مدارج السالكين : 66] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الرِّغْبَةِ والرَّهْبَةِ والخُشُوعِ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ

وَيَدْعُونََنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: 90].

التعليق :

قال ابن القيم :

ولما كان للقلب قوتان: قوة الطلب، وهي الرغبة، وقوة الهرب، وهي الرهبة، وكان العبد طالباً لمصلحته، هارباً من مضارّه، جمع الأمرين في هذا التفويض والتوجّه، فقال: "رغبة ورهبةً إليك". (. [زاد المعاد: 232/4] .

وقال :

كما قال تعالى: { إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ } [التوبة: 59]. ولم يقل: وإلى رسوله، بل جعل الرغبة إليه وحده، كما قال تعالى: { فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ } [الشرح: 7-8]، فالرغبة، والتوكل، والإنابة، والحسب لله وحده، كما أن العبادة والتقوى، والسجود لله وحده، والنذر والحلف لا يكون إلا لله سبحانه وتعالى (. [زاد المعاد: 17/1] .

وقال :

وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه (. [مدارج السالكين: 363] .

وقال :

أن الدين كله رغبة ورهبة فالمؤمن هو الراغب الراهب قال الله تعالى لا نهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً (وفي الدعاء عند النوم الذي رواه البخاري في صحيحه اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رغبة ورهبة إليك) فلا تجد المؤمن أبداً إلا راغباً وراهباً والرغبة والرهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر فرهبته تحمله على الصبر ورغبته تقوده إلى الشكر (. [عدة الصابرين : 132/133]

وقال :

أن خشوع الإيمان هو خشوع القلب لله بالتعظيم والإجلال والوقار والمهابة والحياء فينكسر القلب لله كسرة ملتئمة من الوجل والخجل والحب والحياء وشهود نعم الله وجنایاته هو فيخشع القلب لا محالة فيتبعه خشوع الجوارح) . [الروح : 246] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليلُ الخَشِيَةِ قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة:150].

التعليق :

قال ابن القيم :

و الوجل و الخوف و الخشية و الرهبة ألفاظ متقاربة غير مترادفة قال أبو القاسم الجنيد :
الخوف توقع العقوبة على مجارى الأنفاس .

وقيل : الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف .

وقيل : الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام ، وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه .

وقيل : الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره .

و الخشية أخص من الخوف فإن الخشية للعلماء بالله قال الله تعالى : (إنما يخشى الله من عباده العلماء) . [فاطر : 28] فهي خوف مقرون بمعرفة وقال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : (إني أتقاكم لله وأشدكم له خشية) .

فالخوف حركة والخشية انجماع وانقباض وسكون فإن الذي يرى العدو والسييل ونحو ذلك : له حالتان : إحداها : حركة للهرب منه وهي حالة الخوف .

والثانية : سكونه وقراره في مكان لا يصل إليه فيه وهي الخشية ، ومنه : انخشي الشيء ،
والمضاعف والمعتل أخوان ، كتقضى البازي وتقضض) . [مدارج السالكين : 363] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الإنابة قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ﴾ [الزمر:54].

التعليق :

قال ابن القيم :

قد علمت أن من نزل في منزل التوبة وقام في مقامها نزل في جميع منازل الإسلام فإن التوبة
الكاملة متضمنة لها وهي مندرجة فيها ولكن لا بد من إفرادها بالذكر والتفصيل تبيننا
لحقائقها وخواصها وشروطها .

فإذا استقرت قدمه في منزل التوبة نزل بعده منزل الإلابة وقد أمر الله تعالى بها في كتابه وأثنى
على خليله بها فقال : (وأنبيوا إلى ربكم) الزمر : 54 وقال : (إن إبراهيم لحليم أواه منيب
(هود 75 وأخبر أن آياته إنما يتبصر بها ويتذكر أهل الإنابة فقال (أفلم ينظروا إلى السماء
فوقهم كيف بيناها وزيناها) إلى أن قال (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) ق 68 وقال
تعالى (هو الذي يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقا وما يتذكر إلا من ينيب) غافر
13 وقال تعالى (منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة) الآية

و منيبين منصوب على الحال من الضمير المستكن في قوله (فأقم وجهك) لأن هذا
الخطاب له ولأتمته أي أقم وجهك أنت وأمتك منيبين إليه نظيره قوله (يا أيها النبي إذا
طلقتن النساء) ويجوز أن يكون حالاً من المفعول في قوله (فطر الناس عليها) أي فطرهم
منيبين إليه فلو خلو وفطرهم لما عدلت عن الإنابة إليه ولكنها تحول وتتغير عما فطرت عليه
كما قال (ما من مولود إلا يولد على الفطرة) وفي رواية : (على الملة حتى يعرب عنه

لسانه) وقال عن نبيه داود (فاستغفر ربه وخر راعياً وأناب) ص : 24 وأخبر أن ثوابه وجنته لأهل الخشية والإنابة فقال : (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل أبواب حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب ادخلوها بسلام) ق : 3134 وأخبر سبحانه أن البشرى منه إنما هي لأهل الإنابة فقال : (والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها وأنابوا إلى الله لهم البشرى) الزمر : 17 .

و الإنابة إنابتان : إنابة لربوبيته وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال الله تعالى : (إذا مس الناس ضر دعوا ر بهم منيين إليه) الروم : 33 فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر كما قال تعالى في حق هؤلاء ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بر بهم يشركون ليكفروا بما آتيناهم) الروم : 3334 فهذا حالهم بعد إنابتهم .

و الإنابة الثانية إنابة أوليائه وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور : محبته والخضوع له والإقبال عليه والإعراض عما سواه فلا يستحق اسم المنيب إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم و المنيب إلى الله : المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه .

قال صاحب المنازل : الإنابة في اللغة : الرجوع وهي هاهنا الرجوع إلى الحق وهي ثلاثة أشياء : الرجوع إلى الحق إصلاحاً كما رجع إليه اعتذاراً والرجوع إليه وفاء كما رجع إليه عهداً والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة " .

لما كان التائب قد رجع إلى الله بالاعتذار والإقلاع عن معصيته كان من تنمة ذلك رجوعه إليه بالاجتهاد والنصح في طاعته كما قال تعالى : (إلا من تاب وآمن وعمل عملاً صالحاً)

الفرقان : 70 وقال : (إلا الذين تابوا وأصلحوا) البقرة : 160 فلا تنفع توبة وبطالة ، فلا بد من توبة وعمل صالح ؛ ترك لما يكره وفعل لما يجب تخل عن معصيته وتخل بطاعته .

وكذلك الرجوع إليه بالوفاء بعهده كما رجعت إليه عند أخذ العهد عليك فرجعت إليه بالدخول تحت عهده أولاً فعليك بالرجوع بالوفاء بما عاهدته عليه ثانياً ، والدين كله عهد ووفاء ، فإن الله أخذ عهده على جميع المكلفين بطاعته فأخذ عهده على أنبيائه ورسله على لسان ملائكته أو منه إلى الرسول بلا واسطة كما كلم موسى وأخذ عهده على الأمم بواسطة الرسل وأخذ عهده على الجهال بواسطة العلماء فأخذ عهده على هؤلاء بالتعليم وعلى هؤلاء بالتعلم ومدح الموفين بعهده وأخبرهم بما لهم عنده من الأجر فقال : (ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) الفتح : 10 وقال : (وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً) الإسراء : 34 وقال : (وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم) النحل : 91 وقال : (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) البقرة : 177 .

وهذا يتناول عهودهم مع الله بالوفاء له بالإخلاص والإيمان والطاعة وعهودهم مع الخلق وأخبر النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : أن من علامات النفاق : " الغدر بعد العهد " البخاري و مسلم و أحمد . فما أناب إلى الله عز و جل من خان عهده وغدر به كما أنه لم ينب إليه من لم يدخل تحت عهده فالإنابة لا تتحقق إلا بالتزام العهد والوفاء به .

وقوله : " والرجوع إليه حالاً كما رجعت إليه إجابة "

أي : هو سبحانه قد دعاك فأجبتة بلبيك وسعديك قولاً فلا بد من الإجابة حالاً تصدق به المقال فإن الأحوال تصدق الأقوال أو تكذب بها وكل قول فلصدقه وكذبه شاهد من حال قائله فكما رجعت إلى الله إجابة بالمقال فارجع إليه إجابة بالحال قال الحسن رحمه الله : ابن آدم

لك قول وعمل وعملك أولى بك من قولك ولك سريرة وعلانية وسريرتك أملك بك من
علاانيتك) . [مدارج السالكين : 307-309] .

وقال :

قاعد كثيرا ما يتكرر في القرآن ذكر الإنابة والأمر بها كقوله تعالى (وأنبيوا إلى ربكم وأسلموا
له) وقوله حكاية عن شعيب أنه قال (وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) وقوله (تبصرة وذكرى لكل عبد منيب) وقوله (إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب)
وقوله عن نبيه داود (وخر راکعا وأناب) . والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي
القلب وجواذبه إليه وهي تتضمن المحبة والخشية فإن المنيب محب لمن أناب إليه خاضع له
خاشع ذليل) . [طريق المهجرتين : 209] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الاستعانة قوله تعالى : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:5] ، وفي الحديث :
«إِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ» . ()

التعليق :

قال ابن القيم :

والاستعانة تجمع أصليين : الثقة بالله والاعتماد عليه فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس ولا
يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه
ولعدم من يقوم مقامه فيحتاج إلى اعتماده عليه مع أنه غير واثق به) . [مدارج السالكين :
61] .

وقال :

والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب فالأول من معنى ألوهيته والثاني من معنى ربوبيته فإن الإله هو الذي تأله القلوب محبة وإنابة وإجلالاً وإكراماً وتعظيماً وذكلاً وخضوعاً وخوفاً ورجاءً وتوكلاً والرب هو الذي يرى عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى مصالحه فلا إله إلا هو ولا رب إلا هو فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل فكذلك إلهية ما سواه (. [إغاثة اللفهان : 41/1] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الاستعانة قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق:1] ، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ [الناس:1] .

التعليق :

قال ابن القيم :

المستعاذ به وهو الله وحده رب الفلق ورب الناس ملك الناس إله الناس الذي لا ينبغي الاستعانة إلا به ولا يستعاذ بأحد من خلقه بل هو الذي يعيد المستعيزين ويعصمهم ويمنعهم من شر ما استعاذوا من شره (. [بدائع الفوائد : 541] .

وقال :

وقال : (اللهم إني أسلمت نفسي إليك ووجهت وجهي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك ورغبة ورهبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك) فمنه المنجى وإليه الملجأ وبه الاستعانة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته فالإعادة فعله والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته .

فالأمر كله له والحمد كله له والملك كله له والخير كله في يديه لا يحصي أحد من خلقه ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وفوق كل ما يثنى عليه كل أحد من خلقه ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله : إياك نعبد وإياك نستعين [الفاتحة : 4] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب لكن على أكمل الوجوه) . [إغاثة اللهفان 40/1] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الاستغاثة قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبْ لَكُمْ ﴾ [الأنفال : 9] .

التعليق :

قال ابن القيم :

والملهوف إذا صدق في الاستغاثة به وجده كاشفا للكرب مخلصا منه ، والمضطر إذا صدق في الاضطرار إليه وجده رحيماً مغيثاً) . [مدارج السالكين : 985] .

وقال :

ومن أعظم كيد الشيطان : أنه ينصب لأهل الشرك قبر معظم يعظمه الناس ثم يجعله وثناً يعبد من دون الله ثم يوحى إلى أوليائه أن من نهى عن عبادته واتخاذ عيدا وجعله وثنا فقد تنقصه وهضم حقه فيسعى الجاهلون المشركون في قتله وعقوبته ويكفرونه وذببه عند أهل الإشراف ثم أمر الله به ورسوله و نهيه عما نهى الله عنه ورسوله : من جعله وثناً وعيدا

وإيقاد السرج عليه وبناء المساجد والقباب عليه وتخصيصه وإشادته وتقبيله واستلامه ودعائه أو الدعاء به أو السفر إليه أو الاستغاثة به من دون الله مما قد علم بالاضطرار من دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله : من تجريد التوحيد لله و أن لا يعبد إلا الله) .
[إغاثة اللهفان : 1/ 384].

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (162) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: 162-163]، وَمِنْ السُّنَّةِ: «لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ». ()

التعليق :

قال ابن القيم :

فإن نفس الذبح وإراقة الدم مقصود فإنه عبادة مقرونة بالصلاة كما قال تعالى (فصل لربك وانحر) وقال (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) الأنعام 162 ففي كل ملة صلاة ونسيكة لا يقوم غيرهما مقامهما) . [تحفة المودود : 87] .

وقال :

أن ما أهل به لغير الله لا يجوز أن تأتي شريعة بإباحته أصلاً فإنه بمنزلة عبادة غير الله وكل ملة لا بد فيها من صلاة ونسك ولم يشرع الله على لسان رسول من رسله أن يصلي لغيره ولا ينسك لغيره قال تعالى (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت) . [أحكام أهل الذمة : 176] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل النذر قوله تعالى: ﴿يُؤْفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان:7].

التعليق :

قال ابن القيم :

النذر لغير الله فإنه شرك وهو أعظم من الحلف بغير الله فإذا كان من حلف بغير الله فقد أشرك فكيف بمن نذر لغير الله . [مدارج السالكين : 248] .

وقال :

فما أسرع أهل الشرك إلى اتخاذ الأوثان من دون الله ولو كانت ما كانت ويقولون : إن هذا الحجر وهذه الشجرة وهذه العين تقبل النذر أي تقبل العبادة من دون الله تعالى فإن النذر عبادة وقربة يتقرب بها الناذر إلى المنذور له . [إغاثة اللفهان : 383/1] .

الأصلُ الثَّاني

معرفةُ دين الإسلام بالأدلة

محمد بن عبد الوهاب :

وهو الاستسلامُ لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله؛ وهو

ثلاثُ مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان، وكلُّ مرتبةٍ لها أركانٌ.

التعليق :

قال ابن القيم :

والإسلام هو **توحيد الله** وعبادته وحده لا شريك له والإيمان بالله وبرسوله وإتباعه فيما جاء

به فما لم يأت العبد بهذا فليس بمسلم . [طريق الهجرتين : 484].

و قال :

فالإسلام له نور والإيمان له نور أقوى منه والإحسان له نور أقوى منهما فإذا اجتمع الإسلام

والإيمان والإحسان وزالت الحجب الشاغلة عن الله تعالى امتأ القلب والجوارح بذلك النور لا

بالنور الذي هو صفة الرب تعالى فإن صفاته لا تحل في شيء من مخلوقاته كما أن مخلوقاته لا

تحل فيه فالخالق سبحانه بائن عن المخلوق بذاته وصفاته فلا اتحاد ولا حلول ولا ممازجة تعالى

الله عن ذلك كله علواً كبيراً . [مدارج السالكين : 832] .

المرتبة الأولى

الإسلام

قال محمد بن عبد الوهاب:

فَأركانُ الإسلامِ خمسةٌ: شهادةُ أن لا إلهَ إلاَّ اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ اللهِ، وإقامُ الصلاةِ، وإيتاءُ الزكاةِ، وصومُ رمضانَ، وحجُّ بيتِ اللهِ الحرامِ.

التعليق :

قال ابن القيم :

في الصحيحين و السنن والمسانيد من حديث عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم : (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان) رواه الإمام أحمد في المسند وفي بعض ألفاظه الإسلام خمس فذكره .

ووجه الاستدلال به من وجوه :

أنه جعل الإسلام كالقبة المبنية على خمسة أركان فإذا وقع ركنها الأعظم وقعت قبة الإسلام أنه جعل هذه الأركان في كونهما أركاناً لقبه الإسلام قرينة الشهادتين فهما ركن الصلاة ركن والزكاة ركن فما بال قبة الإسلام تبقى بعد سقوط أحد أركانها دون بقية أركانها .

الثالث أنه جعل هذه الأركان نفس الإسلام وداخلة في مسمى اسمه وما كان اسماً لمجموع أمور إذا ذهب بعضها ذهب ذلك المسمى ولا سيما إذا كان من أركانه لا من أجزائه التي ليست بركن له كالحائط للبيت فإنه إذا سقط البيت بخلاف العود والخشبة واللبنة ونحوها) .
[الصلاة وحكم تاركها :32] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

فدليل الشهادة قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [آل عمران:18] .

التعليق :

قال ابن القيم :

ولذلك شهد الله لنفسه بهذا التوحيد وشهد له به ملائكته وأنبيأؤه ورسله قال (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولوا العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم ، إن الدين عند الله الإسلام) .

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد والرد على جميع هذه الطوائف والشهادة بطلان أقوالهم ومذاهبهم وهذا إنما يتبين بعد فهم الآية ببيان ما تضمنته من المعارف الإلهية والحقائق الإيمانية ،

فتضمنت هذه الآية أجل شهادة وأعظمها وأعدلها وأصدقها من أجل شاهد بأجل مشهود به) . [مدارج السالكين : 1077] .

وقال :

قال الله تعالى (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم) استشهد سبحانه بأولى العلم على أجل مشهود عليه وهو توحيد فقل (شهد الله انه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) . [مفتاح دار السعادة :63].

قال محمد بن عبد الوهاب :

ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده؛ (لا إله) نافية جميع ما يُعبد من دون الله، (إلا الله) مُثَبِّتة العبادة لله وحده لا شريك له في عبادته، كما أنه ليس له شريك في ملكه .

التعليق :

قال ابن القيم :

فهو إلههم الحق ومعبودهم الذي لا إله لهم سواه ولا معبود لهم غيره فكما أنه وحده هو ر بهم ومليكهم لم يشركه في ربوبيته ولا في ملكه لهم أحد فكذلك هو وحده إلههم ومعبودهم فلا ينبغي أن يجعلوا معه شريكاً في إلهيته كما لا شريك معه في ربوبيته وملكه) . [بدائع الفوائد : 594] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وتفسيرها الذي يوضحها قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:26-28] ، وقوله تعالى : ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:26].

التعليق :

قال ابن القيم :

فلاتصح الموالاتة إلا بالمعاداة كما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه (أفرايتم ما كنتم تعبدون ، أنتم و آباؤكم الأقدمون فإ نهم عدو لي إلا رب العالمين) فلم يصح لخليل لله صلى الله عليه وسلم هذه الموالاتة والخللة إلا بتحقيق هذه المعاداة فإنه لا ولاء إلا لله ولا ولاء لله إلا بالبراءة من كل معبود سواه قال تعالى (قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدأ بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده) وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون إلا الذي فطرنى فإنه سيهدىن وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون) أي جعل هذه الموالاتة لله والبراءة من كل معبود سواه كلمة باقية في عقبه يتوارثها الأنبياء وأتباعهم بعضهم عن بعض وهي كلمة لا إله إلا الله وهي التي ورثها إمام الحنفاء لإتباعه إلى يوم القيامة .

وهي الكلمة التي قامت بها الأرض والسموات وفطر الله عليها جميع المخلوقات وعليها أسست الملة ونصبت القبلة وجردت سيوف الجهاد وهي محض حق الله على جميع العباد

وهى الكلمة العاصمة للدم والأموال والذرية في هذه الدار والمنجية من عذاب القبر وعذاب النار وهى المنشور الذي لا يدخل الجنة إلا به والحبل الذي لا يصل إلى الله من لم يتعلق بسببه وهى كلمة الإسلام مفتاح دار السلام و بها انقسم الناس إلى شقي وسعيد ومقبول وطريد و بها انفصلت دار الكفر عن دار الإسلام وتميزت دار النعيم من دار الشقاء والهوان وهى العمود الحامل للفرض والسنة ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة . [الجواب الكافي : 301].

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل شهادة أن محمداً رسول الله قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:128]، ومعنى شهادة أن محمداً رسول الله: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما عنه نهى وزجر، وأن لا يُعبَدَ اللهُ إلا بما شرع.

التعليق :

قال ابن القيم :

ومن هاهنا تعلم اضطرار العباد فوق كل ضرورة إلى معرفة الرسول، وما جاء به، وتصديقه فيما أخبر به، وطاعته فيما أمر، فإنه لا سبيل إلى السعادة والفلاح لا في الدنيا، ولا في الآخرة إلا على أيدي الرسل . [زاد المعاد : 47/1] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الصلاة، والزكاة، وتفسير التوحيد قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقِيَمَةِ﴾ [البينة:5].

التعليق :

قال ابن القيم :

فإن الله سبحانه إنما أمر بعبادته خالصة قال الله تعالى (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) [البينة : 5].

فمن لم يخلص لله في عبادته لم يفعل ما أمر به بل الذي أتى به شيء غير الذي أمر به فلا يصح ولا يقبل منه ويقول الله تعالى : (أنا أغني الشركاء عن الشرك فمن عمل عملاً أشرك معي فيه غيري فهو للذي أشرك به وأنا منه بريء) رواه مسلم عن أبي هريرة . [الجواب الكافي : 202] .

وقال :

وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن عمر أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - قال (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله) .

فوجه الاستدلال به من وجهين :

أحدهما : أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة .

الثاني : قوله (إلا بقتالها) والصلاة من أعظم حقها .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ثم قد حرمت علي دماءهم وأموالهم وحسا بهم على الله) رواه الإمام أحمد المسند

2 / 345 وابن خزيمة في صحيحه رقم 22448

فأخبر - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أنه أمر بقتالهم إلى أن يقيموا الصلاة وأن دماءهم وأموالهم إنما تحرم بعد الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فدماءهم وأموالهم قبل ذلك غير محرمة بل هي مباحة .

وعن أنس بن مالك قال لما توفي رسول الله ارتد العرب فقال عمر يا أبا بكر كيف تقاتل العرب فقال أبو بكر إنما قال رسول الله (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله وقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة) رواه النسائي وهو حديث صحيح .

وتقييد هذه الأحاديث يبين مقتضى الحديث المطلق الذي احتجوا به على ترك القتل مع أنه حجة عليهم فإنه لم يثبت العصمة للدم والمال إلا بحق الإسلام والصلاة أكد حقوقه على الإطلاق .

وأما حديث ابن مسعود وهو (لا يجلب دم أمريء مسلم إلا بإحدى ثلاث) البخاري رقم 6878 مسلم رقم 1676 فهو حجة لنا في المسألة فإنه جعل منهم التارك لدينه والصلاة ركن الدين الأعظم ولا سيما إن قلنا بأنه كافر فقد ترك الدين بالكلية وإن لم يكفر فقد ترك عمود الدين .

قال الإمام أحمد وقد جاء في الحديث (لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة) [راجع طبقات الحنابلة 1 / 356] وقد كان عمر بن الخطاب يكتب إلى الآفاق : إن أهم أموركم عندي الصلاة فمن حفظها حفظ دينه ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع ولا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة .

قال فكل مستخف بالصلاة مستهين بها فهو مستخف بالإسلام مستهين به وإنما حظهم من الإسلام على قدر حظهم من الصلاة ورغبتهم في الإسلام على القادر رغبتهم في الصلاة .

فاعرف نفسك يا عبد الله واحذر أن تلقي الله ولا قدر للإسلام عندك فإن قدر الإسلام في قلبك كقدر الصلاة في قلبك .

وقد جاء الحديث عن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - أنه قال : (الصلاة عمود الدين) المقاصد الحسنة رقم 632 .

ألست تعلم أن الفسطاط إذا سقط عموده سقط الفسطاط ولم ينتفع بالطنب ولا بالأوتاد وإذا قام عمود الفسطاط انتفعت بالطنب والأوتاد وكذلك الصلاة من الإسلام .

وجاء في الحديث (إن أول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة من عمله صلاته فإن تقبلت منه صلاته تقبل منه سائر عمله وإن ردت عليه صلاته رد عليه سائر عمله) مجمع الزوائد 1 /

291 - 292

فصلاتنا آخر ديننا وهي أول ما نسأل عنه غداً من أعمالنا يوم القيامة فليس بعد ذهاب الصلاة إسلام ولا دين إذا صارت الصلاة آخر ما يذهب من الإسلام . هذا كله كلام احمد

والصلاة أول فروض الإسلام وهي آخر ما يفقد من الدين فهي أول الإسلام وآخره فإذا ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه وكل شيء ذهب أوله وآخره فقد ذهب جميعه .
قال الإمام أحمد : كل شيء يذهب آخره فقد ذهب جميعه فإذا ذهبت صلاة المرء ذهب دينه .

والمقصود أن حديث عبد الله بن مسعود : لا يحل دم أمريء مسلم إلا بإحدى ثلاث :
الثيب الزاني والنفس بالنفس والتارك لدينه (البخاري و مسلم من أقوى الحجج في قتل تارك الصلاة) . [حكم تارك الصلاة : 9-11] .

وقال :

وكذلك الزكاة فرضها رحمة منه للمساكين ، و طهرة للأغنياء) . [إغاثة اللهفان :
786/2].

وقال :

الزكاة في اللغة : هي النماء والزيادة في الصلاح وكمال الشيء ، يقال : زكا الشيء إذا نما ،
قال الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها) . [التوبة : 103] فجمع
بين الأمرين : الطهارة والزكاة لتلازمهما) . [إغاثة اللهفان : 74/1] .

وقال :

وكذلك قد قيل في مانعي الزكاة أنهم على ضربين منهم من حكم بكفره وهم من آمن
بمسلمة وطيحة والعنسي ومنهم من لم يحكم بكفره وهم من لم يؤمنوا بهم لكن منعوا الزكاة
وتأولوا أنها كانت واجبة عليهم لأن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كان يصلي
عليهم وكانت صلاته سكتاً لهم قالوا وليس صلاة ابن أبي قحافة سكتاً لنا فلم يحكم بكفرهم

لأنه لم يكن قد انتشرت أحكام الإسلام ولو منعها مانع في وقتنا حكم بكفره . [بدائع
الفوائد : 770] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: 183] .

التعليق :

قال ابن القيم :

لما كان المقصود من الصيام حبس النفس عن الشهوات، وفطامها عن المألوفات، وتعديل
قوتها الشهوانية، لتستعد لطلب ما فيه غليغادتها ونعيمها، وقبول ما تركو به مما فيه حياؤها
الأبدية، ويكسر الجوع والظما من حدتها وسوتها، ويذكرها بحال الأكباد الجائعة من
المساكين، وتضييق مجارى الشيطان من العبد بتضييق مجارى الطعام والشراب، وتحبس قوى
الأعضاء عن استرسالها لحكم الطبيعة فيما يضرها في معاشها ومعادها، ويسكن
كل عضو منها وكل قوة عن جماحه، وتلجم بلجامه، فهو لجأ المتقين، وجنة المحاربين،
ورياضة الأبرار والمقربين، وهو لرب العالمين من بين سائر الأعمال، فإن الصائم لا يفعل
شيئاً، وإنما يترك شهوته وطعامه وشرابه من أجل معبوده، فهو ترك محبوبات النفس وتلقاها
إيثاراً لمحبة الله ومرضاته، وهو سر بين العبد وربّه لا يطلع عليه سواه، والعباد قد يطلعون منه
على ترك المفطرات الظاهرة، وأما كونه ترك طعامه وشرابه وشهوته من أجل معبوده، فهو أمر
لا يطلع عليه بشر، وذلك حقيقة الصوم.

وللصوم تأثيرٌ عجيب في حفظ الجوارح الظاهرة، والقوى الباطنة، وحميتها عن التخليط الجالب لها المواد الفاسدة التي إذا استولت عليها أفسدتها، واستفراغ المواد الرديئة المانعة لها من صحتها، فالصوم يحفظ على القلب والجوارح صحتها، ويُعيد إليها ما استلبته منها أيدي الشهوات، فهو من أكبر العون على التقوى كما قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } [البقرة: 183].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "الصَّوْمُ جُنَّةٌ". وأمر من اشتدَّت عليه شهوةُ النكاح، ولا قدرة له عليه بالصَّيام، وجعله وجاء هذه الشهوة.

والمقصود: أن مصالح الصوم لما كانت مشهودةً بالعقول السليمة، والفطر المستقيمة، شرعه الله عباده رحمة بهم، وإحساناً إليهم، وحمية لهم وجنةً.

وكان هدى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيه أكمل الهدى، وأعظم تحصيل للمقصود، وأسهله على النفوس.

ولما كان فطم النفوس عن مألوفاتها مهوشها تها من أشق الأمور وأصعبها، تأخَّر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطَّنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألقت أوامر القرآن، فنُقِلت إليه بالتدرُّج.

وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفَّى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد صام تسع رمضان، وفرض أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يُطعم عن كلِّ يوم مسكيناً، ثم نُقِلَ من ذلك التخيير إلى تحمُّم الصوم، وجعل الإطعام للشيخ الكبير والمرأة إذا لم يُطيقا الصيام، فإِ نهما يُفطران ويُطعمان عن كلِّ يوم مسكيناً، ورخص للمريض والمسافر أن يُفطرا ويقضيا، وللحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما كذلك، فإن خافتا على ولديهما، زادت مع القضاء إطعام مسكين لكلِّ يوم، فإن فطرهما لم يكن لخوف مرض، وإنما كان مع الصَّحة، فجبر بإطعام المسكين كفطر الصحيح في أول الإسلام.

وكان للصوم رُتْبُ ثلاث، إحداها: إيجابه بوصف التخيير.

والثانية تحتمه، لكن كان الصائم إذا نام قبل أن يَطْعَمَ حَرَمَ عليه الطعام والشراب إلى الليلة القابلة، فنسخ ذلك بالرتبة الثالثة، وهي التي استقر عليها الشرع إلى يوم القيامة (. [زاد المعاد : 28/2-30] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ودليل الحج قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:97].

التعليق :

قال ابن القيم :

فائدة بدیعة (والله على الناس حج البيت) :

قوله تعالى (والله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلاً) [آل عمران : 97] حج البيت مبتدأ وخبره في أحد ا مجرورين قبله والذي يقتضيه المعنى أن يكون في قوله (على الناس) لأنه وجوب والوجوب يقتضي " على " .

ويجوز أن يكون في قوله (والله) لأنه يتضمن الوجوب والاستحقاق ويرجح هذا التقدير أن الخبر محط الفائدة وموضعها وتقديمه في هذا الباب في نية التأخير وكان الأحق أن يكون (والله) ويرجح الوجه الأول بأن يقال : قوله : حج البيت على الناس أكثر استعمالاً في باب الوجوب من أن يقال حج البيت لله تعالى أي حق واجب لله فتأمله .

وعلى هذا ففي تقديم ا لمرور الأول وليس بخر فائدتان :

إحدهما : أنه اسم للموجب للحج فكان أحق بالتقديم من ذكر الوجوب فتضمنت الآية
ثلاثة أمور مرتبة بحسب الوقائع :

أحدها : الموجب لهذا الفرض فبدئ بذكره .

والثاني : مؤدى الواجب وهو المفترض عليه وهم الناس .

والثالث : النسبة والحق المتعلق به إيجاباً بهم وجوباً وأداءً وهو الحج .

والفائدة الثانية : أن الاسم لمرور من حيث كان لله تعالى اسماً سبحانه وحب الاهتمام
بتقديمه تعظيماً لحرمة هذا الواجب الذي أوجبه ، وتخويفاً من تضييعه إذ ليس ما أوجبه الله
سبحانه بمثابة ما أوجبه غيره .

وأما قوله (مَنْ) فهي بدل وقد استهوى طائفة من الناس القولاً لها فاعل المصدر كأنه
قال (أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلاً) وهذا القول يضعف من وجوه :

منها : أن الحج فرض عين ولو كان معنى الآية ما ذكره لأفهم فرض الكفاية لأنه إذا حج
المستطيعون برئت ذمم غيرهم لأن المعنى يؤول إلى : والله على الناس أن يحج البيت
مستطيعهم فإذا أدى المستطيعون الواجب لم يبق واجباً على غير المستطيعين وليس الأمر
كذلك بل الحج فرض عين على كل أحد حج المستطيعون أو قعدوا ولكن الله سبحانه عذر
غير المستطيع بعجزه عن أداء الواجب فلا يؤاخذ به ولا يطالبه بأدائه فإذا حج أسقط
الفرض عن نفسه وليس حج المستطيعين بمسقط للفرض عن العاجزين وإن أردت زيادة
إيضاح :

فإذا قلت : واجب على أهل هذه الناحية أن يجاهد منهم الطائفة المستطيعه للجهاد فإذا
جاهدت تلك الطائفة انقطع تعلق الوجوب عن غيرهم .

وإذا قلت : واجب على الناس كلهم أن يجاهد منهم الطائفة المستطية للجهاد فإذا جاهد منهم المستطيع كان الوجوب متعلقاً بالجميع ، وعذر العاجز بعجزه ففي نظم الآية على هذا الوجه دون أن يقال : والله حج البيت على المستطيعين هذه النكتة البديعة فتأملها .

الوجه الثاني : أن إضافة المصدر إلى الفاعل إذا وجد أولى من إضافته إلى المفعول ولا يعدل عن هذا الأصل إلا بدليل منقول ، فلو كان (مَنْ) هو الفاعل لأضيف المصدر إليه ، وكان يقال : (والله على الناس حج البيت من استطاع) وحمله على باب : (يعجبني ضرب زيداً عمرو) مما يفصل به بين المصدر وفاعله المضاف عليه المضاف إليه بالمفعول والظرف حمل على المكتور المرجوح ، وهي قراءة ابن عامر : (قتل أولادهم) بفتح الدال (شركائهم) فلا يصار إليه وإذا ثبت أن (مَنْ) بدل بعض من كل وجب أن يكون في الكلام ضمير يعود إلى الناس كأنه قيل (من استطاع منهم) وحذف هذا الضمير في أكثر الكلام لا يحسن وحسنه هاهنا أمور :

منها : أن (من) واقعة على من يعقل كالاسم المبدل منه فارتبطت به .

ومنها : أنها موصولة بما هو أخص من الاسم الأول ، ولو كانت الصلة أعم لقبح حذف الضمير العائد ومثال ذلك : إذا قلت : (رأيت أخوتك من ذهب إلى السوق) تريد : من ذهب منهم لكان قبيحاً لأن الذهاب إلى السوق أعم من الإخوة ، وكذلك لو قلت : (البس الثياب ما حسن وجمل) تريد (منها) ولم تذكر الضمير ، لكان أبعد في الجواز ، لأن لفظ (ما حسن) أعم من الثياب .

وباب بدل البعض من الكل أن يكون أخص من المبدل منه فإذا كان أعم وأضفته إلى ضمير أو قيدته بضمير يعود إلى الأول ارتفع العموم وبقي الخصوص ومما حسن حذف الضمير في هذه الآية أيضاً مع ما تقدم طول الكلام بالصلة والموصول .

أما ا مجرور من قوله (إليه) فيحتمل وجهين : أحدهما : أن يكون في موضع حال من (سبيل) كأنه نعت نكرة قدم عليها لأنه لو تأخر لكان في موضع النعت لسبيل . والثاني : أن يكون متعلقاً بسبيل .

فإن قيل : كيف يتعلق به وليس فيه معنى الفعل ؟

قيل : السبيل (لما) كان هاهنا عبارة عن الموصل إلى البيت من قوت وزاد ونحوهما كان فيه رائحة الفعل ، ولم يقصد به السبيل الذي هو الطريق فصلح تعلق ا مجرور به واقتضى حسن النظم وإعجاز اللفظ تقديم ا مجرور وإن كان موضعه التأخير لأنه ضمير يعود على البيت والبيت هو المقصود به الاعتناء وهم يقدمون في كلامهم ما هم به أهم وبيانه أعنى .

هذا تعبير السهيلي وهو بعيد جليل الصواب في متعلق الجار وا مجرور وجه آخر أحسن من هذين ، ولا يليق بالآية سواه ، وهو الوجوب المفهوم من قوله (على الناس) أي : يجب على الناس الحج فهو حق واجب وأما تعليقه بالسبيل أو جعله حالاً منها ففي غاية البعد .. فتأمله ، ولا يكاد يخطر بالبال من الآية وهذا كما يقول : (لله عليك الحج والله عليك الصلاة والزكاة) .

ومن فوائد الآية وأسرارها أنه سبحانه إذا ذكر ما يوجبه ويحرمه يذكره بلفظ الأمر والنهي وهو الأكثر أو بلفظ الإيجاب والكتاب والتحريم نحو (كتب عليكم الصيام) ، (حرمت عليكم الميتة) ، (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم الأنعام) .

[النظم الدال على تأكد الوجوب]

وفي الحج أتى بهذا النظم الدال على تأكد الوجوب من عشرة أوجه :

أحدها : أن قدم اسمه تعالى ، وأدخل عليه لام الاستحقاق والاختصاص ثم ذكر من أوجهه عليهم بصيغة العموم الداخلة عليها حرف (على) ثم أبدل منه أهل الاستطاعة ثم نكر السبيل في سياق الشرط إيذاناً بأنه يجب الحج على أي سبيل تيسرت من قوت أو مال فعلق الوجوب بحصول ما يسمى سبيلاً ثم أتبع ذلك بأعظم التهديد بالكفر فقال (ومن كفر) أي : بعدم التزام هذا الواجب وتركه ثم عظم الشأن وأكد الوعيد بإخباره باستغنائه عنه والله تعالى هو الغني الحميد ولا حاجة به إلى حج أحد .

وإنما في ذكر استغنائه عنه هنا من الإعلام بمقته له وسخطه عليه وإعراضه بوجهه عنه ما هو من أعظم التهديد وأبلغه ثم أكد ذلك بذكر اسم العالمين عموماً ولم يقل : فإن الله غني عنه لأنه إذا كان غنياً عن العالمين كلهم فله الغنى الكامل التام من كل وجه عن كل أحد بكل اعتبار وكان أدل على عظم مقته لتارك حقه الذي أوجهه عليه .

ثم أكد هذا المعنى بأداة (إن) الدالة على التوكيد .

فهذه عشرة أوجه تقتضي تأكيد هذا الفرض العظيم وتأمل سر البديل في الآية المقتضى لذكر الإسناد مرتين :

مرة بإسناده إلى عموم الناس ومرة بإسناده إلى خصوص المستطيعين وهذا من فوائد البديل تقوية المعنى وتأكيد بتكرار الإسناد ولهذا كان فيه نية تكرار العامل وإعادته .

ثم تأمل ما في الآية من الإيضاح بعللها بهام والتفصيل بعد الإجمال وكيف تضمن ذلك إيراد الكلام في صورتين وحلتين اعتناء به وتأكيداً لشأنه .

ثم تأمل كيف افتتح هذا الإيجاب بذكر محاسن البيت وعظم شأنه بما يدعو النفوس إلى قصده ووجهه وإن لم يطلب ذلك منها فقال : (إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركاً

وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمناً ([الحج: 26] فوصفه
بـخمس صفات :

أحدها : أنه أسبق بيوت العالم وضع في الأرض .

الثاني : أنه مبارك والبركة كثرة الخير ودوامه وليس في بيوت العالم أبرك منه ولا أكثر خيراً ولا
أدوم ولا أنفع للخلائق .

الثالث : أنه هدى وصفه بالمصدر نفسه مبالغة حتى كأنه هو نفس الهدى .

الرابع : ما تضمنه من الآيات البينات التي تزيد على أربعين آية .

الخامس : الأمن لداخله .

وفي وصفه بهذه الصفات دون إيجاب قصده ما يبعث النفوس على حجه وإن شطت
بالزائرين الديار وتناءت بهم الأقطار ، ثم أتبع ذلك بصريح الوجوب المؤكد بتلك التأكيدات

وهذا يدل على الاعتنا به سبحانه بهذا البيت العظيم والتنويه بذكره والتعظيم لشأنه
والرفعة من قدره ولو لم يكن له شرف إلا إضافته إياه إلى نفسه بقوله : (وطهر بيتي
للطائفين) [الحج: 26] كفى بهذه الإضافة فضلاً وشرفاً .

وهذه الإضافة هي التي أقبلت بقلوب العالمين إليه وسلبت نفوسهم حباً له وشوقاً إلى رؤيته
فهو المثابة للمحبين يثوبون إليه ، ولا يقضون منه وطراً أبداً كلما ازدادوا له زيادة ازدادوا له
حباً وإليه اشتياًقاً فلا الوصال يشفيهم ولا البعاد يسلبهم كما قيل :

أطوف به والنفس بعد مشوقة ... إليه وهل بعد الطواف تداني

وألثم منه الركن أطلب برد ما ... بقلبي من شوق ومن هيمان

فوالله ما أزداد إلا صباية ... ولا القلب إلا كثرة الخفقان
فيا جنة المأوى ويا غاية المنى ... ويا منيتي من دون كل أمان
أبت غلبات الشوق إلا تقريباً ... إليك فما لي بالبعد يدان
وما كان صدي عنك صد ملالة ... ولي شاهد من مقلتي ولساني
دعوت اصطباري عنك بعدك والبكا ... فلي البكا والصبر عنك عصاني
وقد زعموا أن المحب إذا نأى ... سييلى هواه بعد طول زمان
ولو كان هذا الزعم حقاً لكان ذا ... دواء الهوى في الناس كل أوان
بل إنه ييلى التصبر والهوى ... على حاله لم ييله الملوان
وهذا محب قاده الشوق والهوى ... بغير زمام قائد وعنان
أتاك على بعد المزار ولو ونت ... مطيته جاءت به القدمان) . [بدائع الفوائد :
339-344].

وقال :

هَدِيَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَجَّتِهِ ، لَا خِلَافَ أَنَّهُ لَمْ يَحْجَّ بَعْدَ هِجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ سِوَى
حَجَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ حَجَّةُ الْوَدَاعِ، وَلا خِلَافَ أَنَّهَا كَانَتْ سَنَةً عَشْرًا.
وَاحْتِلَفَ: هَلْ حَجَّ قَبْلَ الْمُهْجَرَةِ؟ فَرَوَى التِّرْمِذِيُّ، عَنِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ:
"حَجَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثَلَاثَ حَجَجٍ، حَجَّتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُهَاجِرَ، وَحَجَّةً بَعْدَ مَا هَاجَرَ
مَعَهَا عُمْرَةً". قَالَ التِّرْمِذِيُّ: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ سَفِيَانَ. قَالَ: وَسَأَلْتُ مُحَمَّدًا يَعْنِي
الْبُخَارِيَّ عَنْ هَذَا، فَلَمْ يَعْرِفْهُ مِنْ حَدِيثِ الثَّوْرِيِّ، وَفِي رِوَايَةٍ: لَا يُعَدُّ الْحَدِيثُ مَحْفُوظًا.

ولما نزل فرض الحج. بادر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الحج من غير تأخير، فإنَّ فرض الحج تأخَّر إلى سنة تسع أو عشر، وأما قوله تعالى: { وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ } [البقرة: 196]، فإنَّها وإن نزلت سنة ستَّ عام الحديبية، فليس فيها فرضية الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العُمرة بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضى وجوب الابتداء، فإن قيل: فَمِنْ أين لكم تأخير نزول فرضه إلى التاسعة أو العاشرة؟ قيل: لأن صدر سورة آل عمران نزل عام الوفود، وفيه قَدِم وفدُ بجران على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصالحهم على أداء الجزية، والجزية إنما نزلت عام تبوك سنة تسع، وفيها نزل صدر سورة آل عمران، وناظر أهل الكتاب، ودعاهم إلى التوحيد والمباهلة، ويدلُّ عليه أن أهل مكة وجدوا في نفوسهم على ما فاتهم من التجارة من المشركين لما أنزل الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا } [التوبة: 28]، فأعاضهم الله تعالى من ذلك بالجزية، ونزول هذه الآيات، والمناداة بها، إنما كان في سنة تسع، وبعث الصَّدِّيق يُوَدِّن بذلك في مكة في موسم الحج، وأردفه بعليٍّ - رضي الله عنه - وهذا الذي ذكرناه قد قاله غير واحد من السلف، والله أعلم.

فصل

ولما عزم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على الحج أعلم الناس أنه حاج، فتجهزوا للخروج معه، وسمع ذلك مَنْ حول المدينة، فَقَدِمُوا يُرِيدُونَ الْحَجَّ مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووافاه في الطريق خلائق لا يُحْصَوْنَ، فكانوا مِنْ بين يديه، ومن خلفه، وعن يمينه، وعن شماله مدَّ البصر، وخرج من المدينة نهاراً بعد الظهر لِسِتِّ بَقِيَيْنَ مِنْ ذِي الْقَعْدَةِ بعد أن صَلَّى الظهر بها أربعاً، وخطبهم قبل ذلك خُطبةً علَّمهم فيها الإحرام وواجباته وسننه . [زاد المعاد : 101/2-103] .

وقال :

في حَجَّةِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ تِسْعٍ بَعْدَ مَقْدَمِهِ مِنْ تَبُوكَ

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْصَرَفَهُ مِنْ تَبُوكَ بَقِيَةَ رَمَضَانَ وَشَوَّالًا وَذَا الْقَعْدَةِ، ثُمَّ بَعَثَ أَبَا بَكْرٍ أَمِيرًا عَلَى الْحَجِّ سَنَةَ تِسْعٍ لِيَقِيمَ لِلْمُسْلِمِينَ حَجَّهُمْ، وَالنَّاسَ مِنْ أَهْلِ الشِّرْكَ عَلَى مَنَازِلِهِمْ مِنْ حَجِّهِمْ، فَخَرَجَ أَبُو بَكْرٍ وَالْمُؤْمِنُونَ.

قال ابن سعد: فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعشرين بدنة، قَلْدَهَا وَأَشْعَرُهَا بِيَدِهِ، عَلَيْهَا نَاجِيَةٌ بِنِ جُنْدَبِ الْأَسْلَمِيِّ، وَسَاقَ أَبُو بَكْرٍ خَمْسَ بَدَنَاتٍ.

قال ابن إسحاق: فنزلت براءة في نقض ما بين رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وبين المشركين من العهد الذي كانوا عليه، فخرج عليُّ بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقة رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَضْبَاءَ.

قال ابن سعد: فلما كان بالعَرَجِ وابن عائد يقول: بَضَجْنَا لِحَقِّهِ عَلِيُّ بْنُ أَبِي تَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلِيَّ الْعَضْبَاءِ، فَلَمَّا رَأَى أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: أَمِيرٌ أَوْ مَأْمُورٌ؟ قَالَ: لَا بَلْ مَأْمُورٌ، ثُمَّ مَضَى.

وقال ابن سعد: فقال له أبو بكر: أَسْتَعْمَلُكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْحَجِّ؟ قَالَ: لَا، وَلَكِنْ بَعَثَنِي أَقْرَأُ بَرَاءَةَ عَلَى النَّاسِ، وَأَنْبِذُ إِلَى كُلِّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، فَأَقَامَ أَبُو بَكْرٍ لِلنَّاسِ حَجَّهُمْ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ النُّحْرِ، قَامَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي تَالِبٍ، فَأَذَّنَ فِي النَّاسِ عِنْدَ الْجَمْرَةِ بِالذِّي أَمَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَنَبَذَ إِلَى كُلِّ ذِي عَهْدٍ عَهْدَهُ، وَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ؛ لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ كَافِرٌ، وَلَا يَحْجُجُ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَمَنْ كَانَ لَهُ عَهْدٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهُوَ إِلَى مُدَّتِهِ.

وقال الحميدي : حَدَّثَنَا سَفِيَانُ، قَالَ: حَدَّثَنِي أَبُو إِسْحَاقَ الْهَمْدَانِي، عَنْ زَيْدِ بْنِ يُتَيْعٍ، قَالَ: سَأَلْنَا عَلِيًّا، بِأَيِّ شَيْءٍ بُعِثَتْ فِي الْحَجَّةِ؟ قَالَ: بُعِثْتُ بِأَرْبَعٍ: لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُؤْمِنَةٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، وَلَا يَجْتَمِعُ مُسْلِمٌ وَكَافِرٌ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ بَعْدَ عَامِهِ هَذَا، وَمَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَهْدٌ، فَعَهْدُهُ إِلَى مُدَّتِهِ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَهْدٌ، فَأَجَلُهُ إِلَى أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ.

وفي "الصحيحين": عن أبي هريرة، قال: بعثني أبو بكر في تلك الحجّة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمي: أَلَا يَحْجُّ بَعْدَ هَذَا الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ، ثُمَّ أَرْدَفَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبَا بَكْرٍ بَعْلِي بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فَأَمَرَهُ أَنْ يُؤذِّنَ بِبِرَاءَةِ، قَالَ: فَأَذَّنَ مَعَنَا عَلِيٌّ فِي أَهْلِ مَنَى يَوْمَ النَّحْرِ بِبِرَاءَةِ، وَأَلَا يَحْجُّ بَعْدَ الْعَامِ مُشْرِكٌ، وَلَا يَطُوفُ بِالْبَيْتِ عُرْيَانٌ.

وفي هذه القصة دليل على أن يوم الحج الأكبر يوم النحر، واختلّف في حجة الصديق هذه، هل هي التي أسقطت الفرض، أو المسقطه هي حجة الوداع مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ على قولين. أصحهما الثاني، والقولان مبنيان على أصلين: أحدهما: هل كان الحج فرض قبل عام حجة الوداع أو لا؟ والثاني: هل كانت حجة الصديق رضي الله عنه في ذي الحجة، أم وقعت في ذي القعدة من أجل النسيء الذي كان الجاهليّة يؤخّرون له الأشهر ويتعلّونها؟ على قولين. والثاني: قول مجاهد وغيره. وعلى هذا، فلم يؤخّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحج بعد فرضه عاماً واحداً، بل بادر إلى الامتثال في العام الذي فرض فيه، وهذا هو اللائق بهديه وحاله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وليس بيد من ادّعى تقدّم فرض الحج سنة ست أو سبع أو ثمان أو تسع دليل واحد، وغايته ما احتج به من قال: فرض سنة ست قوله تعالى: {وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ} [البقرة: 196]، وهي قد نزلت بالحديبية سنة ست، وهذا ليس فيه ابتداء فرض الحج، وإنما فيه الأمر بإتمامه إذا شرع فيه، فأين هذا من وجوب ابتدائه، وآية فرض

الحجّ وهي قوله تعالى: {وَلِلّٰهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مِمَّنْ اسْتِطَاعَ اِلَيْهِ سَبِيْلًا} [آل عمران: 97]، نزلت عامّ الوفود أواخر سنة تسع (. [زاد المعاد : 504/3 - 506] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

المرتبة الثانية

الإيمان

التعليق :

قال ابن القيم :

أن الإيمان قول وعمل والقول قول القلب واللسان ، والعمل عمل القلب والجوارح ، وبيان ذلك أن من عرف الله بقلبه ولم يقر بلسانه لم يكن مؤمناً كما قال عن قوم فرعون : (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم) وكما قال عن قوم عاد وقوم صالح : (وعاداً وثمود وقد تبين لكم من مساكنهم وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل وكانوا مستبصرين) وقال موسى لفرعون : (لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر) فهؤلاء حصل قول القلب وهو المعرفة والعلم ، ولم يكونوا بذلك مؤمنين ، وكذلك من قال بلسانه ما ليس في قلبه لم يكن بذلك مؤمناً بل كان من المنافقين وكذلك من عرف بقلبه وأقر بلسانه لم يكن بمجرد ذلك مؤمناً حتى يأتي بعمل القلب من الحب والبغض والموالاتة والمعاداة فيحب الله ورسوله ويوالي أولياء الله ويعادي أعداءه ويستسلم بقلبه لله وحده وينقاد لمتابعة رسوله وطاعته والتزام شريعته ظاهراً وباطناً وإذا فعل ذلك لم يكف في كمال إيمانه حتى يفعل ما أمر به .

فهذه الأركان الأربعة هي أركان الإيمان التي قام عليها بناؤه وهي ترجع إلى علم وعمل ويدخل في العمل كف النفس الذي هو متعلق النهى وكلاهما لا يحصل إلا بالصبر فصار

الإيمان نصفين أحدهما الصبر والثاني متولد عنه من العلم والعمل) . [عدة الصابرين :
[132] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وهو بضع وسبعون شعبة، فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إمطة الأذى عن الطريق،
والحياء شعبة من الإيمان .

التعليق :

قال ابن القيم :

ولما كان الإيمان أصلاً له شعب متعددة وكل شعبة منها تسمى إيماناً فالصلاة من الإيمان
وكذلك الزكاة والحج والصيام والأعمال الباطنة كالحياء والتوكل والخشية من الله والإنابة إليه
حتى تنتهي هذه الشعب إلى إمطة الأذى عن الطريق فإنه شعبة من شعب الإيمان ، وهذه
الشعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كشعبة الشهادة ومنها ما لا يزول بزوالها كترك إمطة
الأذى عن الطريق وبينهما شعب متفاوتة تفاوتاً عظيماً ؛ منها ما يلحق بشعبة الشهادة
ويكون إليها أقرب ومنها ما يلحق بشعبة إمطة الأذى ويكون إليها أقرب .

وكذلك الكفر ذو أصل وشعب فكما أن شعب الإيمان إيمان فشعب الكفر كفر والحياء

شعبة من الإيمان وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر والصدق شعبة من شعب الإيمان
والكذب شعبة من شعب الكفر والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان وتركها من
شعب الكفر والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر
والمعاصي كلها من شعب الكفر كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان .

شعب الإيمان قسمان : قولية وفعلية وكذلك شعب الكفر نوعان : قولية وفعلية ومن شعب
الإيمان القولية شعبة يوجب زوالها زوال الإيمان فكذلك من شعبة الفعلية ما يوجب زوالها زوال

الإيمان وكذلك شعب الكفر القولية والفعلية فكما يكفر بالإتيان بكلمة الكفر اختياراً وهي
شعبة من شعب الكفر فكذلك يكفر بفعل شعبة من شعبه كالسجود للصنم والاستهانة
بالمصحف فهذا أصل .

وها هنا أصل آخر وهو أن حقيقة الإيمان مركبة من قول وعمل والقول : قسمان قول
القلب وهو الاعتقاد وقول اللسان وهو التكلم بكلمة الإسلام .

والعمل قسمان : عمل القلب وهو نيته وإخلاصه وعمل الجوارح فإذا زالت هذه الأربعة زال
الإيمان بكماله وإذا زال تصديق القلب لم تنفع بقية الأجزاء فإن تصديق القلب شرط في
اعتقادها وكوئها نافعة وإذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فهذا موضع المعركة بين المرجئة
وأهل السنة .

فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء عمل القلب وهو
محبه وانقياده كما لم ينفع إبليس وفرعون وقومه واليهود والمشركين الذين كانوا يعتقدون صدق
الرسول بل ويقرون به سراً وجهراً ويقولون : ليس بكاذب ولكن لا نتبعه ولا نؤمن به وإذا
كان الإيمان يزول بزوال عمل القلب فغير مستنكر أن يزول بزوال أعظم أعمال الجوارح ولا
سيما إذا كان ملزوماً لعدم محبة القلب وانقياده الذي هو ملزوم لعدم التصديق الجازم كما
تقدم تقريره فإنه يلزمه من عدم طاعة القلب عدم طاعة الجوارح إذ لو أطاع القلب وانقاد
أطاعت الجوارح وانقادت ويلزم من عدم طاعته وانقياده عدم التصديق المستلزم للطاعة وهو
حقيقة الإيمان فإن الإيمان ليس مجرد التصديق كما تقدم بيانه وإنما هو التصديق المستلزم
للطاعة والانقياد وهكذا الهدى ليس هو مجرد معرفة الحق وتبينه بل هو معرفته المستلزمة
لاتباعه والعمل بموجبه وإن سمي الأول هدى فليس هو الهدى التام المستلزم للاهتمام كما أن
اعتقاد التصديق وإن سمي تصديقاً فليس هو التصديق المستلزم للإيمان فعليك بمراجعة هذا
الأصل ومراعاته) . [حكم تارك الصلاة : 36-37] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره،
والدليل على هذه الأركان الستة قوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وُجُوهَكُمْ قَبْلَ
الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ
وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة: 177]، ودليل القدر قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾
[القمر: 49].

التعليق :

قال ابن القيم :

علم أصول الإيمان الخمسة الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فإن من لم يؤمن
ب هذه الخمسة لم يدخل في باب الإيمان ولا يستحق اسم المؤمن قال الله تعالى : (ولكن البر
من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين) وقال (ومن يكفر بالله وملائكته
وكتبه ورسله واليوم الآخر فقد ضل ضلالاً بعيداً) ولما سأل جبريل رسول الله صلى الله عليه
و سلم عن الإيمان فقال : (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر قال صدقت)
فالإيمان بهذه الأصول فرع معرفتها والعلم بها . [مفتاح دار السعادة : 187] .

وقال :

الحمد لله ذي الأفضال والأنعام ، وصلى الله تعالى وسلم على سيدنا محمد وعلى آله
وصحبه والأئمة الأعلام

أما بعد :

فإن أهم ما يجب معرفته على المكلف النبيل فضلا عن الفاضل الجليل ما ورد في القضاء والقدر والحكمة والتعليل ، فهو من أسنى المقاصد والإيمان به قطب رحي التوحيد ونظامه ، ومبدأ الدين المبين وختامه ، فهو أحد أركان الإيمان ، وقاعدة أساس الإحسان التي يرجع إليها ، ويدور في جميع تصاريفه عليها ، فالعدل قوام الملك ، والحكمة مظهر الحمد ، والتوحيد متضمن لنهاية الحكمة ، وكمال النعمة ، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

فبالقدر والحكمة ظهر خلقه وشرعه المبين ، ألا له الأمر والخلق تبارك الله رب العالمين) . [شفاء العليل : 9] .

وقال :

قوله تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر) .

قال سفیان عن زياد بن إسماعيل المخزومي : ثنا محمد بن عباد بن جعفر ثنا أبو هريرة قال : جاء مشركو قريش إلى رسول الله صلى الله عليه و سلم يخاصمون في القدر فنزلت هذه الآية إن ا مجرمين في ضلال وسعر يوم يسحبون في النار على وجوههم ذوقوا مس سقر إنا كل شيء خلقناه بقدر) [القمر : 47-49] رواه مسلم .

وقد روى الدارقطني من حديث حبيب بن عمرو الأنصاري عن أبيه قال : قال رسول الله - صلى الله عليه و سلم - (إذا كان يوم القيامة نادى مناد أين خصماء الله ؟ وهم القدرية) ولكن حبيب هذا قال الدارقطني مجهول والحديث مضطرب الإسناد ولا يثبت .

والمخاصمون في القدر نوعان : أحدهما من يبطل أمر الله و نهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) [الأنعام : 148] والثاني : من ينكر قضاءه وقدره السابق . والطائفتان خصماء الله .

قال عوف : من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام ، إن الله تبارك وتعالى قدر أقداراً وخلق الخلق بقدر ، وقسم الآجال بقدر ، وقسم الأرزاق بقدر ، وقسم البلاء بقدر ، وقسم العافية بقدر ، وأمو نهي .

وقال الإمام أحمد : القدر قدرة الله واستحسن ابن عقيل هذا الكلام جدا وقال : هذا يدل على دقة علم أحمد وتبحره في معرفة أصول الدين وهو كما قال أبو الوفاء فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتا بها وتقديرها .

وسلف القدرية كانوا ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق سلف الأمة على تكفيرهم) . [شفاء العليل : 48] .

وقال :

مراتب القضاء والقدر التي من لم يؤمن بها لم يؤمن بالقضاء والقدر

وهي أربع مراتب : المرتبة الأولى بحلم الرب سبحانه بالأشياء قبل كونها ، المرتبة الثانية : كتابته لها قبل كونها ، المرتبة الثالثة : مشيئته لها ، الرابعة : خلقه لها) . [شفاء العليل : 50] .

وقال :

ونؤمن بالقدر خيره وشره وحلوه ومره أنه من الله عز وجل لا معقب لما حكم ولا ناقض لما أبرم وأن أعمال العباد حسننها وسيئها خلق الله عز وجل ومقدورة منه عليهم لا خالق لها سواه ولا مقدر لها إلا إياه (ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ، (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) وأنه عدل في ذلك غير جائر لا يظلمهم مثقال ذرة وأن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيماً) . [اجتماع الجيوش الإسلامية : 99] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

المرتبة الثالثة

الإحسان

ركن واحد، وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل:128]، وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلُبُكَ فِي السَّاجِدِينَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الشعراء:217-220]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:61] الآية.

التعليق :

قال ابن القيم :

وفي حديث جبريل عليه السلام : أنه سأل النبي صلى الله عليه و سلم عن الإحسان ؟ فقال له : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) . [مسلم : 93 ، وأحمد : 367] .

(المراقبة) دوام علم العبد وتيقنه باطلاع الحق سبحانه على ظاهره وباطنه فاستدامته لهذا العلم واليقين هي (المراقبة) وهي ثمرة علمه بأن الله سبحانه رقيب عليه ناظر إليه سامع لقوله وهو مطلع على عمله كل وقت وكل لحظة وكل نفس وكل طرفة عين) . [مدارج السالكين : 421] .

قال محمد بن الوهاب :

والدليل من السنة حديث جبريل المشهور عن عمر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: بينما نحن جلوس عند رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ذات يوم، إذا طلع علينا رجلٌ شديدُ بياضِ الثياب، شديد سوادِ الشعر، لا يرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفه منا أحد، حتى جلس إلى النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فاسند رُكْبَتَيْهِ إلى رُكْبَتَيْهِ، ووضع كَفَيْهِ على فخذه، وقال: يا مُحَمَّدُ؛ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ. فقال رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا))، قال: صدقت. فعجبنا له: يسأله ويصدقُه! قال: فأخبرني عن الإيمان؟ قال: ((أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ))، قال: صدقت. قال: فأخبرني عن الإحسان؟ قال: ((أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ))، قال: فأخبرني عن الساعة؟ قال: ((مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)). قال: فأخبرني عن أماراتها؟ قال: ((أَنْ تَلِدَ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)). قال: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فقال: ((يَا عُمَرُ، أَتَدْرِي مِنَ السَّائِلِ؟)) قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ((فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ، أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ)).

التعليق :

قال ابن القيم :

وجعل النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - إحسان العبودية أعلى مراتب الدين ، وهو الإحسان ، فقال في حديث جبريل عليه السلام - وقد سأله عن الإحسان - : (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [البخاري : 50 ، ومسلم : 97 ، و أحمد : 9501] . [مدارج السالكين : 81] .

وقال :

أن النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - كان يندب إلى أعلى المقامات فإن عجز العبد عنه حطه إلى المقام الوسط كما قال : (اعبد الله كأنك تراه) فهذا مقام المراقبة الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان ثم قال : (فإن لم تكن تراه فإنه يراك) [مسلم : 93 ، و أحمد : 367] فحطه عند العجز عن هذا إلى مقام العلم باطلاعه ورؤيته ومشاهدته لعبده في الملاء والخلاء) . [مدارج السالكين : 530] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

الأصل الثالث

معرفة نبيكم محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم

قال محمد بن عبد الوهاب :

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهاشم من قريش، وقريش من العرب، والعرب من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، وله من العمر: ثلاث وستون سنة، منها أربعون قبل النبوة، وثلاث وعشرون نبيًا رسولاً.

التعليق :

قال ابن القيم :

ومن هذا اختياره سبحانه ولد إسماعيل من أجناس بني آدم، ثم اختار منهم بني كنانة من خزيمية، ثم اختار من ولد كنانة قريشاً، ثم اختار من قريش بني هاشم، ثم اختار من بني هاشم سيّد ولد آدم محمداً صلى الله عليه وسلم) . [زاد المعاد : 24/1] .

وقال :

في نسبه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وهو خير أهل الأرض نسباً على الإطلاق، فلنسبه من الشرف أعلى ذروة، وأعداؤه كانوا يشهدون له بذلك، ولهذا شهد له به عدوه إذ ذاك أبو سفيان بين يدي ملك الروم، فأشرف القوم قومه، وأشرف القبائل قبيله، وأشرف الأفخاذ فخذه.

فهو محمد بن عبد الله، بن عبد المطلب، بن هاشم، بن عبد مناف، بن قصي، بن كلاب، بن مرة، بن كعب، بن لؤي، بن غالب، بن فهر، بن مالك، بن التضر، بن كنانة، بن خزيمه، بن مدركة، بن إلياس، بن مضر، بن نزار، بن معد، بن عدنان.

إلى هاهنا معلوم الصحة، متفق عليه بين النسابين، ولا خلاف فيه البتة، وما فوق "عدنان" مختلف فيه. ولا خلاف بينهم أن "عدنان" من ولد إسماعيل عليه السلام، وإسماعيل: هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم). [زاد المعاد : 49/1] .

وقال :

فلما بلغ خمساً وعشرين سنة، خرج إلى الشام في تجارة، فوصل إلى "بصرى" ثم رجع، فتزوج عقب رجوعه خديجة بنت خويلد. وقيل: تزوجها وله ثلاثون سنة. وقيل: إحدى وعشرون، وسنها أربعون، وهي أول امرأة تزوجها، وأول امرأة ماتت من نساءه، ولم ينكح عليها غيرها، وأمره جبريل أن يقرأ عليها السلام من ر بها.

ثم حبب الله إليه الخلوة، والتعبد لربه، وكان يخلو ب "غار حراء" يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، وبُعِضَتْ إليه الأوثان ودين قومه، فلم يكن شيء أبغض إليه من ذلك.

فلما كَمُلَ له أربعون، أشرق عليه نورُ النبوة، وأكرمه الله تعالى برسالته، وبعثه إلى خلقه، واختصه بكرامته، وجعله أمينه بينه وبين عباده . ولا خلاف أن مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يومَ الاثنين، واختلف في شهر المبعث. فقيل: لثمان مضين من ربيع الأول، سنة إحدى وأربعين من عام الفيل وهذا قول الأكثرين) . [زاد المعاد : 55/1] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

نُبِّئَ بِ (اقرأ) وَأُرْسِلَ بِ (المدثر)، وبلدُهُ مَكَّةَ، بَعَثَهُ اللهُ بِالنَّدَارَةِ عَنِ الشَّرِكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (1) قُمْ فَأَنْذِرْ (2) وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ (3) وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ (4) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ (5) وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ (6) وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: 1-7] ومعنى ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ يُنذِرُ عَنِ الشَّرِكِ وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، ﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ أَي: عَظَّمَهُ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ أَي: طَهَّرَ أَعْمَالَكَ عَنِ الشَّرِكِ، ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا تَرْكُهَا وَأَهْلُهَا، وَالبِرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا.

التعليق :

قال ابن القيم :

أَوَّلُ مَا أَوْحَى إِلَيْهِ رَبُّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنْ يَقْرَأَ بِاسْمِ رَبِّهِ الَّذِي خَلَقَ، وَذَلِكَ أَوَّلُ نَبُوته، فَأَمْرُهُ أَنْ يَقْرَأَ فِي نَفْسِهِ، وَلَمْ يَأْمُرْهُ إِذْ ذَاكَ بِتَبْلِيغِ، ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ } [المدثر: 1-2] فنبأه بقوله: { اقرأ } ، وأرسله ب { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } ثم أمره أن يُنذِرَ عَشِيرَتَهُ الْأَقْرَبِينَ، ثُمَّ أَنْذَرَ قَوْمَهُ، ثُمَّ أَنْذَرَ مَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْعَرَبِ، ثُمَّ أَنْذَرَ الْعَرَبَ قَاطِبَةً، ثُمَّ أَنْذَرَ الْعَالَمِينَ، فَأَقَامَ بِضْعَ عَشْرَةَ سَنَةً بَعْدَ نَبُوته يُنذِرُ بِالدَّعْوَةِ بِغَيْرِ قِتَالٍ وَلَا جِزْيَةٍ، وَيُؤْمَرُ بِالكِفِّ وَالصَّبْرِ وَالصَّفْحِ . ([زاد المعاد : 132/3] .

وقال :

بعثه الله على رأس أربعين، وهي سنُّ الكمال. قيل: ولها تبعث الرسل، وأما ما يذكر عن المسيح أنه رُفِعَ إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف له أثر متصل يجب المصير إليه.

وأول ما بدئ به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من أمر النبوة الرؤيا، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح قيل: وكان ذلك ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاث وعشرون سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة والله أعلم.

ثم أكرمه الله تعالى بالنبوة، فجاءه الملك وهو بغار حراء، وكان يُحب الخلوة فيه، فأول ما أنزل عليه { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [العلق: 1] هذا قول عائشة والجمهور.

وقال جابر: أول ما أنزل عليه: { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } [المدثر: 1]

والصحيح قول عائشة لوجوه:

أحدها: أن قوله: "مَا أَنَا بِقَارِيءٍ" صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً.

الثاني: الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإندار، فإنه إذا قرأ في نفسه، أنذر بما قرأه، فأمره بالقراءة أولاً، ثم بالإندار بما قرأه ثانياً.

الثالث: أن حديث جابر، وقوله: أول ما أنزل من القرآن { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } [المدثر: 1] قول جابر، وعائشة أخبرت عن خبره صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نفسه بذلك.

الرابع: أن حديث جابر الذي احتج به صريح في أنه قد تقدم نزول الملك عليه أولاً قبل نزول { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ } [المدثر: 1] فإنه قال: "فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جاءني بحراء،

فرجعت إلى أهلي فقلت: زملوني دثروني، فأُنزل الله: { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُّ } [المدثر: 1] " وقد أخبر أن الملك الذي جاءه بحراء أنزل عليه { اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ } [العلق: 1] فدل حديث جابر على تأخر نزول { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثُرُّ } [المدثر: 1] والحجة في روايته، لا في رأيه، والله أعلم . [زاد المعاد : 61/1-62] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

أخذ على هذا عشر سنين يدعو إلى التوحيد، وبعد العشر عرج به إلى السماء وفرضت عليه الصلوات الخمس، وصلى في مكة ثلاث سنين، وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة.

التعليق :

قال ابن القيم :

وأقام صلى الله عليه وسلم بعد ذلك ثلاث سنين يدعو إلى الله سبحانه مستخفياً، ثم نزل عليه { فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين } [الحجر: 94]. فأعلن صلى الله عليه وسلم بالدعوة وجاهر قومه بالعداوة، واشتد الأذى عليه وعلى المسلمين حتى أذن الله لهم بالهجرتين . [زاد المعاد : 62/1] .

وقال :

أقام رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ سِنِينَ مِنْ أَوَّلِ نُبُوتِهِ مُسْتَخْفِيًا، ثُمَّ أَعْلَنَ فِي الرَّابِعَةِ، فَدَعَا النَّاسَ إِلَى الْإِسْلَامِ عَشْرَ سِنِينَ، يُوَافِي الْمَوْسِمَ كُلَّ عَامٍ، يَتَّبِعُ الْحَاجَّ فِي مَنَازِلِهِمْ، وَفِي الْمَوَاسِمِ بِعُكَاظٍ، وَبِحَنْتَةٍ، وَذِي الْمَجَازِ، يَدْعُوهُمْ إِلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ حَتَّى يُبَلِّغَ رِسَالَاتِ رَبِّهِ وَهُمْ الْجَنَّةُ، فَلَا يَجِدُ أَحَدًا يَنْصُرُهُ وَلَا يُجْبِيهِ، حَتَّى إِذَا لَيْسَ أَلُحُّ مِنَ الْقَبَائِلِ وَمَنَازِلِهَا قَبِيلَةً قَبِيلَةً، وَيَقُولُ: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا، وَتَمْلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ، وَتَذِلَّ لَكُمْ بِهَا الْعَجَمَ، فَإِذَا آمَنْتُمْ، كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ" . [زاد المعاد : 40/3] .

وقال :

وَأَكْمَلُ الْخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ، مَنْ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ كُلَّهَا، وَالْخَلْقُ مَتَفَاوِتُونَ فِي مَنَازِلِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ، تَفَاوَتْهُمْ فِي مَرَاتِبِ الْجِهَادِ، وَلِهَذَا كَانَ أَكْمَلُ الْخَلْقِ وَأَكْرَمُهُمْ عَلَى اللَّهِ حَاتِمُ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، فَإِنَّهُ كَمَّلَ مَرَاتِبَ الْجِهَادِ، وَجَاهَدَ فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ، وَشَرَعَ فِي الْجِهَادِ مِنْ حِينَ بُعِثَ إِلَى أَنْ تَوَفَّاهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَإِنَّهُ لَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ: { يَا أَيُّهَا الْمَدَّثِرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ } [المدثر: 1-4] شَمَّرَ عَنْ سَاقِ الدَّعْوَةِ، وَقَامَ فِي ذَاتِ اللَّهِ أُمَّ قِيَامًا، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ لِيَاوُ نَهَارًا، وَسِرًّا وَجَهَارًا، وَلَمَّا نَزَلَ عَلَيْهِ: { فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ } [الحجر: 94]، فَصَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ لَا تَأْخُذُهُ فِيهِ لَوْمَةٌ لَائِمَةٌ، فَدَعَا إِلَى اللَّهِ الصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ، وَالْحَرِّ وَالْعَبْدِ، وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالْأَحْمَرَ وَالْأَسْوَدَ، وَالْجَنِّ وَالْإِنْسِ.

وَلَمَّا صَدَعَ بِأَمْرِ اللَّهِ، وَصَرَخَ لِقَوْمِهِ بِالدَّعْوَةِ، وَنَادَاهُمْ بِسَبِّ أُمَّتِهِمْ، وَعَيَبِ دِينَهُمْ، اشْتَدَّ أَذَاهُمْ لَهُ، وَلَمَّا اسْتَجَابَ لَهُ مِنْ أَصْحَابِهِ، وَنَالُوهُ وَنَالُوهُمْ بِأَنْوَاعِ الْأَذَى، وَهَذِهِ سُنَّةُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي خَلْقِهِ . [زاد المعاد : 14-13/3] .

وقال :

ثم أسري بروحه وجسده إلى المسجد الأقصى، ثم عُرِّجَ به إلى فوق السماوات بجسده وروحه إلى الله عزَّ وجل، فخاطبه، وفرض عليه الصلوات، وكان ذلك مرة واحدة، هذا أصح الأقوال. وقيل: كان ذلك مناماً، وقيل: بل يقال: أسري به، ولا يقال: يقظة ولا مناماً. وقيل: كان الإسراء إلى بيت المقدس يقظة، وإلى السماء مناماً. وقيل: كان الإسراء مرتين: مرة يقظة، ومرة مناماً. وقيل: بل أسري به ثلاث مرات، وكان ذلك بعد المبعث بالاتفاق (. [زاد المعاد : 73/1-74] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

والهجرة: الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة على هذه الأمة من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، وهي باقية إلى أن تقوم الساعة، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (97) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (98) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا غَفُورًا﴾ [النساء: 97-99]، وقوله تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ

فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت: 56]، قال البغوي رحمه الله: سبب نزول هذه الآية في

المسلمين الذين بمكة لم يهاجروا؛ ناداهم الله باسم الإيمان.

والدليل على الهجرة من السنة قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لا تَنْقَطِعُ الْهَجْرَةُ حَتَّى

تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلَا تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»

التعليق :

قال ابن القيم :

لما كثر المسلمون، وخاف منهم الكفار، اشتد أذاهم له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفتنتهم إياهم، فَأَذِنَ لَهُمْ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْمَهْجَرَةِ إِلَى الْحَبْشَةِ وَقَالَ: إِنَّ بِهَا مَلَكًا لَا يُظْلَمُ النَّاسُ عِنْدَهُ"، فهاجر من المسلمين اثنا عشر رجلاً وأربع نسوة، منهم عثمان بن عفان، وهو أول من خرج، ومعه زوجته زَيْنَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأقاموا في الحبشة في أحسن جوار، فبلغهم أَنَّ قَرِيشًا أَسْلَمَتْ، وكان هذا الخبر كذباً، فرجعوا إلى مكة، فلما بلغهم أن الأمر أشدُّ مما كان، رجع منهم مَنْ رجع، ودخل جماعة، فَلَقُوا مِنْ قُرَيْشٍ أذى شديداً، وكان ممن دخل عبدُ اللهِ بنُ مسعود.

ثم أذن لهم في الهجرة ثانياً إلى الحبشة، فهاجر من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً، إن كان فيهم عمار، فإنه يُشك فيهِ، ومن النساء ثمان عشرة امرأة، فأقاموا عند النجاشي على أحسن حال، فبلغ ذلك قريشاً، فأرسلوا عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة في جماعة، ليكيدوهم عند النجاشي، فرد الله كيدهم في نحورهم.

فاشتد أذاهم لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فحصره وأهل بيته في الشَّعْبِ شِعْبِ أَبِي طَالِبٍ ثَلَاثَ سِنِينَ، وقيل: سنتين، وخرج من الحصر وله تسع وأربعون سنة، وقيل: ثمان وأربعون سنة، وبعد ذلك بأشهر مات عمُّه أبو طالب وله سبع وثمانون سنة، وفي الشَّعْبِ وُلِدَ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَبَّاسٍ، فنال الكفار منه أذى شديداً، ثم ماتت خديجةُ بعد ذلك بيسير، فاشتدَّ أذى الكفار له، فخرج إلى الطائف هو وزيد بن حارثة يدعو إلى الله تعالى، وأقام به أياماً فلم يجيبوه، وأدَّوه، وأخرجوه، وقاموا له سِمْطَيْنِ، فرجموه بالحجارة حتى أدموا كعبيه، فانصرف عنهم رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ راجعاً إلى مكة، وفي طريقه لقي عَدَّاساً النَّصْرَانِيَّ، فأمن به وصدَّقه.

وفي طريقه أيضاً بنخلة صُرف إليه نفر من الجن سبعةً مِنْ أَهْلِ نَصِيبِينَ، فاستمعوا القرآن وأسلموا، وفي طريقه تلك أرسل الله إليه مَلَكَ الْجِبَالِ يأمره بِطَاعَتِهِ، وأن يُطَبَّقَ عَلَى قَوْمِهِ

أخشي مكة، وهما جبلاها إن أراد، فقال: "لَا بَلَّ أَسْتَأْنِي بِهِمْ، لَعَلَّ اللَّهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْْبُدُهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئاً". وفي طريقه دعا بذلك الدعاء المشهور: "اللهم إليك أشكو ضعف قُوَّتِي، وقلة حيلتي...". الحديث، ثم دخل مكة في جوار المطعم بن عدي (. [زاد المعاد : 73-72/1] .

وقال :

فأقام صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بمكة ما أقام، يدعو القبائل إلى الله تعالى، وَيَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَيْهِمْ فِي كُلِّ مَوْسِمٍ أَنْ يَأْوُوهُ، حَتَّى يَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّهِ وَلَهُمُ الْجَنَّةُ، فَلَمْ تَسْتَجِبْ لَهُ قَبِيلَةٌ، وَأَدَّخَرَ اللَّهُ ذَلِكَ كِرَامَةً لِلْأَنْصَارِ، فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ تَعَالَى إِظْهَارَ دِينِهِ، وَإِنْجَازَ وَعْدِهِ، وَنَصْرَ نَبِيِّهِ، وَإِعْلَاءَ كَلِمَتِهِ، وَالإِنْتِقَامَ مِنْ أَعْدَائِهِ، سَاقَهُ إِلَى الْأَنْصَارِ، لَمَّا أَرَادَ بِهِمْ مِنَ الْكِرَامَةِ، فَانْتَهَى إِلَى نَفَرٍ مِنْهُمْ سِتَّةٌ، وَقِيلَ: ثَمَانِيَةٌ، وَهُمْ يَحْلِفُونَ رُؤُوسَهُمْ عِنْدَ عَقْبَةِ مَنَى فِي الْمَوْسِمِ، فَجَلَسَ إِلَيْهِمْ، وَدَعَاهُمْ إِلَى اللَّهِ، وَقَرَأَ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ، فَاسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَرَسُولَهُ، وَرَجَعُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَدَعَوْا قَوْمَهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، حَتَّى فَشَا فِيهِمْ، وَلَمْ يَبْقَ دَارٌ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ إِلَّا وَفِيهَا ذِكْرٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَأَوَّلُ مَسْجِدٍ قُرِئَ فِيهِ الْقُرْآنُ بِالْمَدِينَةِ مَسْجِدُ بَنِي زُرَيْقٍ، ثُمَّ قَدِمَ مَكَةَ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، مِنْهُمْ خَمْسَةٌ مِنَ السِّتَةِ الْأَوَّلِينَ، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ عِنْدَ الْعَقْبَةِ، ثُمَّ انصَرَفُوا إِلَى الْمَدِينَةِ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ فِي الْعَامِ الْقَابِلِ مِنْهُمْ ثَلَاثَةٌ وَسَبْعُونَ رَجُلًا وَامْرَأَتَانِ، وَهُمْ أَهْلُ الْعَقْبَةِ الْأَخِيرَةِ، فَبَايَعُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَنْ يَمْنَعُوهُ مِمَّا يَمْنَعُونَ مِنْهُ نِسَاءَهُمْ وَأَبْنَاءَهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ، فَتَرَحَّلَ هُوَ وَأَصْحَابُهُ إِلَيْهِمْ، وَاخْتَارَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُمْ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا .

وَأَذِنَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ فِي الْهَجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَخَرَجُوا أَرْسَالًا مُتَسَلِّينَ، أَوْ لَهُمْ فِيهَا قَيْلٌ: أَبُو سَلْمَةَ بْنُ عَبْدِ الْأَسَدِ الْخَزْرَمِيُّ، وَقِيلَ: مُصْعَبُ بْنُ عَمِيرٍ فَاقْدَمُوا عَلَى الْأَنْصَارِ فِي دُورِهِمْ، فَأَوَّوهُمْ، وَنَصَرُوهُمْ، وَفَشَا الْإِسْلَامُ بِالْمَدِينَةِ، ثُمَّ أَذِنَ اللَّهُ

لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الهجرة، فخرج من مكة يوم الاثنين في شهر ربيع الأول وقيل: في صفر، وله إذ ذاك ثلاث وخمسون سنة، ومعه أبو بكر الصديق، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر، ودليلهم عبد الله بن الأريقط الليثي، فدخل غار ثور هو وأبو بكر، فأقاما فيه ثلاثاً، ثم أخذوا على طريق الساحل، فلما انتهوا إلى المدينة، وذلك يوم الاثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، وقيل غير ذلك، نزل بقاء في أعلى المدينة على بني عمرو بن عوف. وقيل: نزل على كلثوم بن الهدم. وقيل: على سعد بن خيثمة، والأول أشهر، فأقام عندهم أربعة عشر يوماً، وأسس مسجد بقاء، ثم خرج يوم الجمعة، فأدركته الجمعة في بني سالم، فجمع بهم بمن كان معه من المسلمين، وهم مائة، ثم ركب ناقته وسار، وجعل الناس يكلمونه في النزول عليهم، يأخذون بخطام الناقة، فيقول: "خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ" فبركت عند مسجده اليوم، وكان مريداً لسهل وسهيل غلامين من بني النجار، فنزل عنها على أبي أيوب الأنصاري، ثم بني مسجده موضع المريد بيده هو وأصحابه بالجريد واللبن، ثم بنى مسكنه ومسكن أزواجه إلى جنبه، وأقر بها إليه مسكن عائشة، ثم تحول بعد سبعة أشهر من دار أبي أيوب إليها، وبلغ أصحابه بالحبشة هجرته إلى المدينة، فرجع منهم ثلاثة وثلاثون رجلاً، فحس منهم بمكة سبعة، وانتهى بقيتهم إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، ثم هاجر بقيتهم في السفينة عام خير سنة سبع). [زاد المعاد : 74/1-76] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

فلما استقرَّ بالمدينة أمرَ ببقية شرائع الإسلام مثل الزكاة، والصوم، والحج، والأذان، والجهاد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك من شرائع الإسلام. أخذ على هذا عشر سنين، وبعدها تُوفِّي -صلواتُ الله وسلامه عليه- ودينه باقٍ.

التعليق :

قال ابن القيم :

وأخبر سبحانه أنه فعل ذلك لِيُتِمَّ نعمته عليهم، وليهديهم، ثم ذكَّره نعمه عليهم بإرسال رسوله إليهم، وإنزال كتابه عليهم، ليزكيهم ويُعلِّمهم الكتاب والحكمة، ويُعلِّمهم ما لم يكونوا يعلمون، ثم أمرهم بذكره وبشكره، إذ بهذين الأمرين يستوجبون إتمام نعمه، والمزيد من كرامته، ويستجلبون ذكره لهم، ومحبتهم لهم، ثم أمرهم بما لا يتم لهم ذلك إلا بالاستعانة به، وهو الصبر والصلاة، وأخبرهم أنه مع الصابرين.

وَأتمَّ نعمته عليهم مع القبلة بأن شرع لهم الأذان في اليوم والليلة خمس مرات، وزادهم في الظهر والعصر والعشاء ركعتين أخريين بعد أن كانت ثنائية، فكل هذا كان بعد مقدِّمه المدينة.

فلما استقرَّ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمدينة، وأَيَّده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألَّفَّهين قلوبهم بعد العداوة والإحْن التي كانت بينهم، فمنعته أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلوا نفوسهم دونه وقدموا محبته على محبة الآباء والأبناء والأزواج، وكان أولى بهم من أنفسهم، رمتهمُ العربُ واليهودُ عن قوس واحدة، وشمروا لهم عن ساقِلِ العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم من كُلِّ جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبر والعفو والصفح حتى قويت الشوكة، واشتد الجناح، فأذن لهم حينئذ في القتال، ولم يفرضه عليهم، فقال تعالى: {أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ} [الحج: 39].

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم في القتال، ولا كان لهم شكٌّ يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثاني : أن سياق الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال:
{الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ} [الحج: 40] وهؤلاء هم
المهاجرون.

الثالث : قوله تعالى: { هَذَا نِ حَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رِيهِمْ } [الحج: 19] نَزَلَتْ فِي الَّذِينَ
تَبَارَزُوا يَوْمَ بَدْرٍ مِنَ الْفَرِيقَيْنِ.

الرابع: أنه قد خاطبهم في آخرها بقوله: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا } ، والخطابُ بذلك كله مدني،
فأما الخطاب: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ } فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذي يَعُمُّ الجهادَ باليد وغيره، ولا ريب أن الأمر بالجهاد
المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأما جهادُ الْحِجَّةِ، فأمر به في مكة بقوله: { فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ
وَجَاهِدْهُمْ بِهِ } [الفرقان: 52] أي: بالقرآن

{ جِهَادًا كَبِيرًا } [الفرقان: 52]، فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو التبليغُ، وجهادُ الْحِجَّةِ،
وأما الجهادُ المأمور به في "سورة الحج" فيدخل فيه الجهادُ بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى في "مستدرکه" من حديث الأعمش، عن مسلم البطين، عن سعيد
بن جبیر، عن ابن عباس قال: "لما خَرَجَ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ قَالَ أَبُو
بَكْرٍ: أَخْرِجُوا نَبِيَّهُمْ، إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ لِيَهْلِكُنَّ، فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: { أِذِنَ لِلَّذِينَ
يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا } [الحج: 39] وهى أول آية نزلت في القتال". وإسناده على شرط
"الصحيحين" وسياق السورة يدل على أن فيها المكي والمدني، فإن قصة إلقاء الشيطان في
أمنية الرسول مكية، والله أعلم . [زاد المعاد: 61/3-63] .

وقال :

ثم فرضَ عليهم القتالَ بعدَ ذلكَ لمن قاتلهم دونَ مَنْ لم يُقاتِلهم فقال: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ} [البقرة: 190].

ثم فرضَ عليهم قتالَ المشركينَ كافةً، وكانَ محرِّماً، ثم مأذوناً به، ثم مأموراً به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأموراً به لجميع المشركين إما فرضَ عَيْنٍ على أحد القولين، أو فرضَ كِفَايَةَ على المشهور .

والتحقيق أن جنس الجهاد فرض عين إما بالقلب ، و إما باللسان ، و إما بالمال ، و إما باليد ، فعلى كل مسلم أن يجاهد بنوع من هذه الأنواع (. [زاد المعاد : 63/3-64] .

وقال :

فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها من الموالاة فيه سبحانه ، والمعاداة فيه ، والحب فيه ، والبغض فيه ، وبذل النفس له في محاربة عدوه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ، ومخالفة الهوى ، وإيثار محاب الرب على محاب النفس (. [مدارج السالكين : 516] .

وقال :

فيقال إنما بعث الله رسله وأنزل كتبه بالإنكار على الخلق بما هم عليه من أحكام البشرية وغيرها ، فبهذا أرسلت الرسل ، وأنزلت الكتب ، وانقسمت الدار إلى دار سعادة للمنكرين ودار شقاوة للمنكر عليهم فالطعن في ذلك طعن في الرسل والكتب والتخلص من ذلك انخلال من ريقه الدين .

ومن تأمل أحوال الرسل مع أممهم وجددهم كانوا قائمين بالإنكار عليهم أشد القيام حتى لقوا الله تعالى وأوصوا من آمن بهم بالإنكار على من خالفهم وأخبر النبي - صلى الله عليه وعلى

ءاله وسلم - : أن المتخلص من مقامات الإنكار الثلاثة ليس معه من الإيمان حبة خردل
وبالغ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أشد المبالغة حتى قال : (إن الناس إذا تركوه
أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده) [إسناده صحيح : أحمد ، وأبوداود ، والترمذي
و ابن ماجة] .

وأخبر : أن تركه يمنع إجابة دعاء الأخيار ويوجب تسلط الأشرار .

وأخبر : أن تركه يوقع المخالفة بين القلوب والوجوه ويحل لعنة الله كما لعن الله بني إسرائيل
على تركه) .

[مدارج السالكين : 839] .

وقال :

وقاعدته وأصله هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي بعث الله به رسله وأنزل به كتبه
ووصف به هذه الأمة وفضلها لأجله على سائر الأمم التي أخرجت للناس وهذا واجب على
كل مسلم قادر وهو فرض كفاية ويصير فرض عين على القادر الذي لم يقم به غيره من
ذوي الولاية والسلطان فعليهم من الوجوب ما ليس على غيرهم فإن مناط الوجوب هو
القدرة فيجب على القادر ما لا يجب على العاجز قال تعالى (فاتقوا الله ما استطعتم) وقال
النبي صلى الله عليه و سلم (إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم) . [الطرق الحكمية :
184] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

ولهذا دينه، لا خير إلا دل الأمة عليه، ولا شر إلا حذرهما منه.

والخير الذي دلها عليه: التوحيد، وجميع ما يحبُّه الله ويرضاه.

والشُّرُّ الذي حَذَّرَهَا منه: الشُّرْكُ وجميع ما يكرههُ اللهُ ويأباهُ.

التعليق :

قال ابن القيم :

أرسله على حين فترة من الرسل فهدى به إلى أقوم الطرق وأوضح السبل وافترض على العباد طاعته ومحبته وتعزيره وتوقيره والقيام بحقوقه وسد إلى جنته جميع الطرق فلم يفتح لأحد إلا من طريقه فشرح له صدره ورفع له ذكره ووضع عنه وزره وجعل الذلة والصغار على من خالف أمره فهدى به من الضلالة وعلم به من الجهالة وكثر به بعد القلة وأعز به بعد الذلة وأغنى به بعد العيلة وبصر به من العمى وأرشد به من الغي وفتح برسالته أعيناً عمياً وأذناً صماً وقلوباً غلفاً .

فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين فلم يدع خيراً إلا دل أمته عليه ولا شراً إلا حذر منه و نهى عن سلوك الطريق الموصلة إليه ، ففتح القلوب بالإيمان والقرآن وجاهد أعداء الله باليد واللسان فدعا إلى الله على بصيرة وسار في الأمة بالعدل والإحسان وخلقه العظيم أحسن سيرة إلى أن أشرقت برسالته الأرض بعد ظلما تما وتألقت به القلوب بعد شتا تما .

وسارت دعوته سير الشمس في الأقطار وبلغ دينه القيم ما بلغ الليل والنهار واستجابت لدعوته الحق القلوب طوعاً وإذعاناً وامتألت بعد خوفها وكفرها أمناً وإيماناً فجزاه الله عن أمته أفضل الجزاء وصلى عليه صلاة تملأ أقطار الأرض والسماء وسلم تسليماً كثيراً) . [طريق المهجرتين : 8] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

بعثه الله إلى الناس كافة، وافترض طاعته على جميع الثقلين: الجن والإنس، والدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:158].

التعليق :

قال ابن القيم :

ومحمد (صلى الله عليه وعلى ءاله وسلم) مبعوث إلى جميع الثقلين فرسالته عامة للجن والإنس في كل زمان ولو كان موسى وعيسى عليهما السلام حين لكانا من أتباعه وإذا نزل عيسى ابن مريم عليهما السلام فإنما يحكم بشريعة محمد (. [مدارج السالكين : 717] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وكمّل الله به الدين والدليل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:03].

التعليق :

قال ابن القيم :

إن الله سبحانه قد تم الدين بنبيه - صلى الله عليه وعلى ءاله وسلم - وأكمّله به ولم يجوجه ولا أمته بعده إلى عقل ولا نقل سواه ولا رأي ولا منام ولا كشف قال تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً) . [الصواعق المرسلّة : 259].

وقال :

والنبي صلى الله عليه و سلم في أول أمره لما جاءه الملك فقال له اقرأ فقال ما أنا بقارئ وفي آخره أمره بقول الله له (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي) وبقوله له خاصة (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) .
[مفتاح دار السعادة : 133] .

وقال :

فإذا جئت إلى النبي صلى الله عليه و سلم وتأملت سيرته مع قومه وصبره في الله ، واحتماله ما لم يحتمله نبي قبله وتلون الأحوال عليه من سلم وخوف وغنى وفقر وأمن وإقامة في وطنه وضمن عنه وتركه لله وقتل أحبابه وأوليائه بين يديه وأذى الكفار له بسائر أنواع الأذى من القول والفعل والسحر والكذب والافتراء عليه والبهتان وهو مع ذلك كله صابر على أمر الله يدعو إلى الله فلم يؤذ نبي ما أؤذي ولم يحتمل في الله ما احتمله ولم يعط نبي ما أعطيه فرفع الله له ذكره وقرن اسمه باسمه وجعله سيد الناس كلهم وجعله اقرب الخلق إليه وسيلة وأعظمهم عنده جاها واسمعهم عنده شفاعاة وكانت تلك المحن والابتلاء عين كرامته وهي مما زاده الله بها شرفا وفضلا وساقه بها إلى أعلا المقامات وهذا حال ورثته من بعده الأمثل فالأمثل كل له نصيب من المحنة يسوقه الله به إلى كماله بحسب متابعتة له ومن لا نصيب له من ذلك فحظه من الدنيا حظ من خلق لها وخلقت له وجعل خلاقه ونصيبه فيها فهو يأكل منها رغدا ويتمتع فيها حتى يناله نصيبه من الكتاب يمتحن أولياء الله وهو في دعة وخفض عيش ويخافون وهو آمن ويحزنون وهو في أهله مسرور له شأن ولهم شأن وهو في واد وهم في واد همه ما يقيم به جاهه ويسلم به ماله وتسمع به كلمته لزم من ذلك ما لزم ورضي من رضي وسخط من سخط وهمهم إقامة دين الله وإعلاء كلمته وإعزاز أوليائه وان تكون الدعوة له وحده فيكون هو وحده المعبود لا غيره ورسوله المطاع لا سواه فلله سبحانه من الحكم في

ابتلائه أنبياءه ورسله وعباده المؤمنين ما تتقاصر عقول العالمين عن معرفته وهل وصل من وصل إلى المقامات المحمودة والنهايات الفاضلة إلا على جسر المحنة والابتلاء

كذا المعالي إذا ما رمت ندرتها ... فاعبر إليها على جسر من التعب

والحمد لله وحده وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً دائماً أبداً إلى يوم الدين ورضي الله عن أصحاب رسول الله أجمعين .

وإذا تأملت الحكمة الباهرة في هذا الدين القويم والملة الحنيفية والشريعة المحمدية التي لا تنال العبارة كما لها ولا يدرك الوصف حسناتها ولا تقترح عقول العقلاء ولو اجتمعت وكانت على أكمل عقل رجل منهم فوقها وحسب العقول الكاملة الفاضلة إن أدركت حسناتها وشهدت بفضلها وأنه ما طرق العالم شريعة أكمل ولا أجل ولا أعظم منها فهي نفسها الشاهد والمشهود له والحجة والمحتج له والدعوى لبرهان ولو لم يأت الرسول ببرهان عليها لكفى بها برهاناً وآية وشاهداً على أنها من عند الله وكلها شاهدة له بكمال العلم وكمال الحكمة وسعة الرحمة والبر والإحسان والإحاطة بالغيب والشهادة والعلم بالمبادئ والعواقب وأنها من أعظم نعم الله التي نعم بها على عباده فما أنعم عليهم بنعمة أجل من أن هداهم لها وجعلهم من أهلها ومن ارتضاهم لها فلماذا امتن على عباده بأن هداهم لها قال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وقال معرفا لعباده ومذكرا لهم عظيم نعمته عليهم مستدعيا منهم شكره على أن جعلهم من أهلها (اليوم أكملت لكم دينكم) الآية وتأمل كيف وصف الدين الذي اختاره لهم بالكمال والنعمة التي أسبغها عليهم بالتمام إيذانا في الدين بأنه لا نقص فيه ولا عيب ولا خلل ولا شيء خارجا عن الحكمة بوجه بل هو الكامل في حسنه وجلالته ووصف النعمة بالتمام إيذانا بدوامها واتصالها وأنه لا يسلبهم إيها بعد إذ أعطاهموها بل يتمها لهم بالدوام في هذه الدار وفي دار القرار وتأمل حسن اقتران

التمام بالنعمة وحسن اقتران الكمال بالدين وإضافة الدين إليهم إذ هم القائمون به المقيمون له وأضاف النعمة إليذ هو وليها ومسديها والمنعم بها عليهم فهي نعمته حقاً وهم قابلوها واتي في الكمال باللام المؤذنة بالاختصاص وأنه شيء خصوا به دون الأمم وفي إتمام النعمة بعلى المؤذنة بالاستعلاء والاشتمال والإحاطة فجاء أتمت في مقابلة أكملت وعليكم في مقابلة لكم ونعمتي في مقابلة دينكم وأكد ذلك وزاده تقريراً وكمالاً وإتماماً للنعمة بقوله (ورضيت لكم الإسلام ديناً) وكان بعض السلف الصالح يقول ياله من دين لو أن له رجلاً) . [مفتاح دار السعادة : 342-343] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

والدليل على موته - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (30) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [الزمر: 30-31] .

التعليق :

قال ابن القيم :

ومنها: أن وقعة أحدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصاً بين يدي موتِ رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فثَبَّتَهُمْ، هَوِّجَهُمْ عَلَى انْقِلَابِهِمْ عَلَى أَعْقَابِهِمْ أَنَّهُمْ أَنَّ مَاتَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَوْ قُتِلَ، بَلِ الْوَاجِبُ لَهُ عَلَيْهِمْ أَنْ يَثْبُتُوا عَلَى دِينِهِ وَتَوْحِيدِهِ وَمَمَاتُوا عَلَيْهِ، أَوْ يَقْتُلُوا فِي نَهْمٍ إِنَّمَا يَعْبُدُونَ رَبَّ مُحَمَّدٍ، وَهُوَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، فَلَوْ مَاتَ مُحَمَّدٌ أَوْ قُتِلَ، لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَمَا جَاءَ بِهِ، فَكُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ، وَمَا بُعِثَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُخَلِّدَ لَا هُوَ وَلَا هُمْ، بَلِ لِيُؤْتُوا عَلَى الْإِسْلَامِ وَالتَّوْحِيدِ، فَإِنَّ الْمَوْتَ لَا بُدَّ مِنْهُ، سِوَاءَ مَا تَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ بَقِيَ، وَلِهَذَا وَجَّهَهُمْ عَلَى رَجُوعِ مَنْ رَجَعَ مِنْهُمْ عَنْ دِينِهِ لِمَا صَرَخَ الشَّيْطَانُ: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَقَالَ: { وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا،

وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ { [آل عمران: 144]، والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا، فظهر أثرُ هذا العتابِ، وحكمُ هذا الخطاب يومَ مات رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وارتدَّ مَنْ ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكِرُونَ على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم .

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلاً لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحقَ به، فيردُّ الناسُ كُلَّهُم حوضَ المنايا مَوْرِدًا واحداً، وإن تنوعت أسبابه، ويصدُّروْنَ عن موقف القيامة مصادِرَ شتى، فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير) . [زاد المعاد : 185/3-186] .

وقال :

وقال (عمر بن الخطاب) رضي الله عنه يوم مات رسول الله والله ما مات رسول الله ولا يموت حتى يكون آخرنا حتى قرئ عليه (إنك ميت وإنا نهم ميتون) . [الزمر: 30] .
فرجع عن ذلك وقد كان علم الآية ولكنه نسيها لعظم الخطب الوارد عليه) . [الصواعق المرسله : 155] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

والناسُ إذا ماتوا يُبْعَثُونَ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه: 55]، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا (17) ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: 17-18] .

التعليق :

قال ابن القيم :

قال الحافظ أبو عبد الله بن منده في كتاب الروح والنفس أخبرنا محمد بن يعقوب بن يوسف حدثنا محمد بن اسحق الصفار أنبأنا أبو النضر هاشم بن القاسم حدثنا عيسى بن المسيب عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال خرجنا مع رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - في جنازة رجل من الأنصار فانتبهنا إلى القبر ولما يلحد فجلسنا وجلس كأن على أكتافنا فلق الصخر وعلى رؤوسنا الطير فأرم قليلاً والارمام السكوت فلما رفع رأسه قال إن المؤمن إذا كان في قبل من الآخرة ودبر من الدنيا وحضره ملك الموت عليه ملائكة معهم كفن من الجنة وحنوط من الجنة فجلسوا منه مد البصر وجاء ملك الموت فجلس عند رأسه ثم قال اخرجي أيتها النفس المطمئنة اخرجي إلى رحمة الله ورضوانه فتنسل نفسه كما تقطر القطرة من السماء فإذا خرجت نفسه صلى عليه كل من بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتفتح له السماء ويشيعه مقربوها إلى السماء الثانية والثالثة والرابعة والخامسة والسادسة والسابعة إلى العرش مقربو كل سماء فإذا انتهى إلى العرش كتب كتابه في عليين ويقول الرب عز و جل ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتكم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فيرد إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران في الأرض بأنيا بهما ويفحصان الأرض بأشعارهما فيجلسانه ثم يقال له يا هذا من ربك فيقول ربي الله فيقولان صدقت ثم يقال له ما دينك فيقول ديني الإسلام فيقولان صدقت ثم يقال له من نبيك فيقول محمد رسول الله فيقولان صدقت ثم يفسح له في قبره مد بصره ويأتيه رجل حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول جزاك الله خيراً فوالله ما علمت إن كنت لسريعاً في طاعة الله بطيئاً عن معصية الله فيقول وأنت فجزاك الله خيراً فمن أنت؟ فيقول أنا عمالك الصالح ثم يفتح له باب إلى الجنة فينظر إلى مقعده ومنزله منها حتى تقوم الساعة وإن الكافر إذا كان في دبر من الدنيا وقبل من الآخرة وحضره الموت نزلت عليه من السماء ملائكة معهم كفن من النار وحنوط من نار قال فيجلسون منه مد بصره وجاء ملك الموت فيجلس عند رأسه ثم يقول : اخرجي أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى غضب الله وسخطه

فتفرق روحه في جسده كراهية أن تخرج لما ترى وتعاين فيستخرجها كما يستخرج السفود من الصوف المبلول فإذا خرجت نفسه لعنه كل شيء بين السماء والأرض إلا الثقلين ثم يصعد به إلى السماء فتعلق دونه فيقول الرب عز و جل ردوا عبدي إلى مضجعه فإني وعدتهم أنني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى فتد روحه إلى مضجعه فيأتيه منكر ونكير يثيران في الأرض بأنيا بهما ويفحصان الأرض بأشعارهما أصوا تهما كالرعد القاصف وأبصارهما كالبرق الخاطف فيجلسانه ثم يقولان يا هذا من ربك ؟ فيقول : لا أدري فينادي من جانب القبر لا دريت فيضربانه بمرزبة من حديد لو اجتمع عليها من بين الخافقين لم تقل ويضيق عليه قبره حتى تختلف أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول جزاك الله شراً فوالله ما علمت إن كنت لبطيئاً عن طاعة الله سريعاً في معصية الله فيقول ومن أنت ؟ فيقول : أنا عمالك الخبيث ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة) [رواه الإمام أحمد ومحمود بن غيلان وغيرهما عن أبي النضر] . [أبوداود كتاب الجنائز باب الجلوس عند القبر :4753] .

ففيه أن الأرواح تعاد إلى القبر وأن الملكين يجلسان الميت ويستنطقانه . [الروح :53-54] .

وقال :

المسألة السادسة وهي أن الروح هل تعاد إلى الميت في قبره وقت السؤال أم لا ؟ فقد كفانا رسول الله أمر هذه المسألة وأغنانا عن أقوال الناس حيث صرح بإعادة الروح إليه فقال البراء بن عازب كنا في جنازه في بقيع الغرقد فأتانا النبي وسلم فقعد وقعدنا حوله كأن على رءوسنا الطير وهو يلحد له فقال : ((أعوذ بالله من عذاب القبر)) ثلاث مرات ثم قال : ((إن العبد إذا كان في إقبال من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة كأن

وجوههم الشمس فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الطيبة أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان .

قال فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وذلك الخنوط ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض قال فيضعدون بها فلا يمرون بها يعني على ملاء من الملائكة إلا قالوا ما هذا الروح الطيب ! فيقولون فلان ابن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه في الدنيا حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله تعالى فيقول الله عز و جل اكتبوا كتاب عبدي في عليين وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى قال فتعاد روحه في جسده فيأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له من ربك ؟ فيقول ربي الله فيقولون له ما دينك ؟ فيقول ديني الإسلام فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان له وما علمك بهذا ؟ فيقول قرأت كتاب الله فأمنت به وصدقت فينادى مناد من السماء أن صدق عبدي فأفرشوه من الجنة وافتحوا له باباً من الجنة قال فيأتيه من ريحها وطيبها ويفسح له في قبره مد بصره قال ويأتيه رجل حسن الوجه حسن الثياب طيب الريح فيقول أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول له من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير فيقول أنا عمالك الصالح فيقول رب أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي قال وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه معهم المسوح فيجلسون منه مد البصر ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه فيقول أيتها النفس الخبيثة اخرجي إلى سخط من الله وغضب قال فتتفرق في جسده فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول فيأخذها فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح ويخرج منها كأن تن ريح جيفة وجدت على وجهه فيضعدون بها فلا يمرون بها على ملاء من الملائكة

إلا قالوا ما هذا الريح الخبيث فيقولون فلان ابن فلان بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا فيستفتح له فلا يفتح ثم قرأ رسول الله لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط فيقول الله عز و جل اكتبوا كتابة في سجين في الأرض السفلى فتطرح روحه طرحا ثم قرأ ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق فتعاد روحه في جسده ويأتيه ملكان فيقولان له من ربك ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فيقولان له ما هذا الرجل الذي بعث فيكم ؟ فيقول هاه هاه لا أدري فينادى مناد من السماء أن كذب عبدي فأفرشوه من النار وافتحوا له باباً إلى النار فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح فيقول أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعده فيقول من أنت ؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر فيقول أنا عملك الخبيث فيقول رب لا تقم الساعة) رواه الإمام أحمد وأبو داود وروى النسائي وابن ماجه وأوله ورواه أبو عوانة الأسفرائيني في صحيحه .

وذهب إلى القول بموجب هذا الحديث جميع أهل السنة والحديث من سائر الطوائف (. [الروح : 48-49] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسِبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا
بِالْحُسْنَى﴾ [النجم: 31] .

التعليق :

قال ابن القيم :

وقال تعالى (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) فهذه الغاية هي المرادة من العباد وهي
أن يعرفوا ر بهم ويعبدوه وحده وأما الغاية المرادة بهم فهي الجزاء بالعدل والفضل والثواب
والعقاب قال تعالى (والله ما في السموات وما في الأرض ليجزي الذين أساءوا بما عملوا
ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) قال تعالى (إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس
بما تسعى) . [بدائع الفوائد : 1214] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالِدَلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى
وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ . [التغابن: 07] .

التعليق :

قال ابن القيم :

وسمى الله تعالى يوم القيامة يوم الدين فإنه اليوم الذي يدين فيه الناس بأعمالهم إن خيراً فخير
وإن شراً فشر وذلك يتضمن جزاؤهم وحسا بهم فلذلك فسروا بيوم الجزاء ويوم الحساب وقال
تعالى فلولا إن كنتم غير مدينين ترجعوا نها إن كنتم صادقين (أي هلا تردون الروح إلى
مكا نها إن كنتم غير مريبين ولا مقهورين ولا مجزيين .

وهذه الآية تحتاج إلى تفسير فإِ نَها سيقَت للاحتجاج عليهم في إنكارهم البعث والحساب ولا بد أن يكون الدليل مستلزم لمدلوله بحيث ينتقل الذهن منه إلى المدلول لما بينهما من التلازم فكل ملزوم دليل على لازمه ولا يجب العكس .

ووجه الاستدلال أ نَهم إذا أنكروا البعث والجزاء فقد كفروا بر بهم وأنكروا قدرته وربوبيته وحكمته فإِما أن يقولوا بأن لهم رباً قاهراً لهم متصرفاً فيهم كما يشاء يميتهم إذا شاء ويحييهم إذا شاء ويأمرهم وينهاهم ويثيب محسنهم ويعاقب مسيئهم وأما أن لا يقولوا برب هذا شأنه فإن أقروا به آمنوا بالبعث والنشور والدين الأمري والجزائي وإن أنكروه وكفروا به فقد زعموا أنهم غير مربوبين ولا محكوم عليه ولا لهم رب يتصرف فيهم كما أراد فهلا يقدر على دفع الموت عنهم إذا جاءهم وعلى رد الروح إلى مستقرها إذا بلغت الحلقوم ؟

وهذا خطاب للحاضرين وهم عند المحتضر وهم يعاينون موته أي فهلا يردون الروح إلى مكانها إن كان لهم قدرة وتصرف ولستم بمربوبين ولا مقهورين لقاهر قادر تمضي عليكم أحكامه وينفذ فيكم أوامره وهذه غاية التعجيز لهم إذا تبين عجزهم عن رد نفس واحدة من مكان إلى مكان ولو اجتمع على ذلك الثقلان .

فيا لها من آية دالة على ربوبيته سبحانه ووحدانيته وتصرفه في عباده ونفوذ أحكامه فيهم وجريا نَها عليهم .

والدين دينان دين شرعي وأمري ودين حسابي جزائي وكلاهما لله وحده فالدين كله لله أمراً أو جزاءً . [الجواب الكافي : 315-316] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وأرسل الله جميع الرُّسلِ مبشِّرينَ ومُنذرينَ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿رُسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:165]، وأولُهُم نوحٌ

عليه السلام، وآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو خاتمُ النَّبِيِّينَ والدليلُ على
 أَنَّ أَوْلَهُمْ نوحُ قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ
 بَعْدِهِ﴾ [النساء: 163]، وكلُّ أُمَّةٍ بعثَ اللهُ إليها رسولاً مِنْ نوحٍ إلى محمدٍ يأمُرُهُمْ بعبادةِ
 اللهِ وحدهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ، والدليلُ قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ
 رَسُولًا أَنْ أُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36] .

التعليق :

قال ابن القيم :

وأن مقام التوحيد أولى المقامات أن يبدأ به كما أنه أول دعوة الرسل كلهم قال النبي لمعاذ بن
 جبل حين بعثه إلى اليمن فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله بل
 أول الواجبات مفتاح دعوة المرسلين كلهم وهو أول ما دعا إليه فاتحهم نوح فقال (يا قوم
 اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وهو أول ما دعا إليه خاتمهم محمد (. [مدارج السالكين
 : 102] .

وقال :

فصل في دعوة الرسل إلى التوحيد و إخلاص العبادة وجميع الرسل إنما دعوا إلى (إياك نعبد و
 إياك نستعين) ثم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم فقال
 نوح لقومه (اعبدوا الله مالكم من إله غيره) وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم قال
 الله تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وقال (وما أرسلنا
 من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (يا أيها الرسل
 كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم
 فاتقون) . [مدارج السالكين: 79] .

وقال :

فيقال لا ريب أن أهل التوحيد يتفاوتون في توحيدهم علماً ومعرفةً وحالاً تفاوتاً لا يحصيه إلا الله فأكمل الناس توحيداً : الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم والمرسلون منهم أكمل في ذلك وأولو العزم من الرسل أكمل توحيداً وهم : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وأكملهم توحيداً الخليلان محمد وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهما فيهما قاما من التوحيد بما لم يقيم به غيرهما علماً ومعرفةً وحالاً ودعوةً للخلق وجهاداً فلا توحيد أكمل من الذي قامت به الرسل ودعوا إليه وجاهدوا الأمم عليه .

ولهذا أمر الله سبحانه نبيه أن يقتدي بهم فيه كما قال سبحانه بعد ذكر إبراهيم ومناظرته أباه وقومه في بطلان الشرك وصحة التوحيد وذكر الأنبياء من ذريته ثم قال (أولئك الذين آتيناهم الكتاب والحكم والنبوة فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قومليسا بها كافرين أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده) فلا أكمل من توحيد من أمر رسول الله أن يقتدي بهم .

ولما قاموا بحقيقته علماً وعملاً ودعوةً وجهاداً جعلهم الله أئمة للخلائق يهدون بأمره ويدعون إليه وجعل الخلائق تبعهم يأتمون بأمرهم وينتهون إلى ما وقفوا بهم عنده وخص بالسعادة والفلاح والهدى أتباعهم وبالشقاء والضلال مخالفهم وقال لإمامهم وشيخهم إبراهيم خليله (إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) أي لا ينال عهدي بالإمامة مشرك .

ولهذا أوصى نبيه محمداً أن يتبع ملة إبراهيم وكان يعلم أصحابه إذا أصبحوا أن يقولوا (أصبحنا على فطرة الإسلام وكلمة الإخلاص وعلى دين نبينا محمد وعلى ملة أبينا إبراهيم حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين) وملة إبراهيم التوحيد ودين محمد ما جاء به من عند الله قولاً وعملاً واعتقاداً وكلمة الإخلاص هي شهادة أن لا إله إلا الله وفطرة الإسلام هي ما

فطر الله عليه عباده من محبته وعبادته وحده لا شريك له والاستسلام له عبودية وذلاً وانقياداً وإناية ، فهذا هو توحيد خاصة الخاصة الذي من رغب عنه فهو من أسفه السفهاء .

قال تعالى (ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) .

فقسم سبحانه الخلائق قسمين سفيها لا أسفه منه ورشيداً فالسفيه من رغب عن ملته إلى الشرك والرشيد من تبرأ من الشرك قولاً وعملاً وحالاً فكان قوله توحيداً وعمله توحيداً وحاله توحيداً ودعوته إلى التوحيد و بهذا أمر الله سبحانه جميع المرسلين من أولهم إلى آخرهم قال تعالى (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) وقال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجمعنا من دون الرحمن آلهة يعبدون) وقال تعالى (أم اتخذوا آلهة من الأرض هم ينشرون لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون لا يسأل عما يفعل وهم يسألون أم اتخذوا من دونه آلهة قل هاتوا برهانكم هذا ذكر من معي وذكر من قبلي) أي هذا الكتاب الذي أنزل علي وهذه كتب الأنبياء كلهم هل وجدتم في شيء منها اتخذ آلهة مع الله أم كلها ناطقة بالتوحيد أمرة به ؟ وقال تعالى (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) والطاغوت اسم لكل ما عبده من دون الله فكل مشرك إلهه طاغوته

وقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية على ما ذكره صاحب المنازل في التوحيد فقال بعد أن حكى كلامه إلى آخره أما التوحيد الأول الذي ذكره فهو التوحيد الذي جاءت به الرسل من أولهم إلى آخرهم ونزلت به الكتب كلها وبه أمر الله الأولين والآخرين وذكر الآيات الواردة بذلك .

ثم قال وقد أخبر الله عن كل رسول من الرسل أنه قال لقومه (اعبدوا الله مالكم من إله غيره
(وهذه أول دعوة الرسل وآخرها قال النبي - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - : (أمرت
أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله) وقال (من مات وهو يعلم
أن لا إله إلا الله دخل الجنة) والقرآن مملوء من هذا التوحيد والدعوة إليه وتعليق النجاة
والسعادة في الآخرة به وحقيقته إخلاص الدين كله لله) . [مدارج السالكين : 1100-
1101] .

قال محمد بن عبد الوهاب :

وافترض الله على جميع العباد الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال ابن القيم رحمه الله
تعالى: معنى الطاغوت ما تجاوز به العبد حده من معبود، أو متبوع، أو مطاع.

والطواغيتُ كثيرونَ ورؤوسُهُمُ خمسَةٌ: إبليسُ لعنهُ اللهُ، ومَنْ عُبِدَ وهو راضٍ، ومَنْ دعا الناسَ إلى عبادةِ نفسه، ومَنْ ادَّعى شيئاً منَ علمِ الغيبِ، ومَنْ حكمَ بغيرِ ما أنزلَ اللهُ، والدليلُ قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 256]، وهذا هو معنى (لا إله إلا الله)، وفي الحديثِ «رأسُ الأمرِ الإسلامُ وعمودهُ الصَّلَاةُ وذروةُ سنامه الجهادُ في سبيلِ الله». والله أعلمُ .

التعليق :

قال ابن القيم :

والطواغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله أو يعبدونه من دون الله أو يتبعونه على غير بصيرة من الله أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدلوا من عبادة الله إلى عبادة الطواغوت وعن التحاكم إلى الله وإلى الرسول إلى التحاكم إلى الطواغوت وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى طاعة الطواغوت ومتابعته وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معاً . [إعلام الموقعين : 40/1] .

وقال :

لما كان الجهاد ذروة سنام الإسلام وقبته، ومنازلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرِّفْعَةُ في الدنيا، فهم الأَعْلَوْنَ في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كان رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدَّرْوَةِ العُلْيَا منه، واستولى على أنواعه كُلِّهَا فجاهد في الله حقَّ جهاده بالقلب، والجنان، والدَّعْوَةِ،

والبيان، والسيف، والسنان، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده. ولهذا كان أرفعَ العالمين ذكراً، وأعظمهم عند الله قدراً.

وأمره الله تعالى بالجهاد من حين بعثه، وقال: { وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا } [الفرقان: 51-52]، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلك جهاد المنافقين، إنما هو بتبليغ الحجة، وإلا فهم تحت قهر أهل الإسلام، قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبئسَ المصيرُ } [التوبة: 73]. فجهاد المنافقين أصعب من جهاد الكفار، وهو جهاد خواص الأمة، وورثة الرسل، والقائمون به أفراد في العالم، والمشاركون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هم الأقلين عدداً، فهم الأعظمون عند الله قدراً.

ولما كان من أفضل الجهاد قول الحق مع شدة المعارض، مثل أن تتكلم به عند من تخاف سطوته وأذاه، كان للرسل صلوات الله عليهم وسلامته من ذلك الحظ الأوفر، وكان لنبينا صلوات الله وسلامته عليه من ذلك أكمل الجهاد وأتمه . [زاد المعاد : 7/3] .

الخاتمة

قال ابن القيم :

أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطلها يوماً واحداً، فإنها شعائر الكفر والشرك، وهي أعظم المنكرات، فلا يجوز الإقرار عليها مع القدرة ألبتة، وهذا حكم المشاهد التي بُنيت على القبور التي أُحْدِثت أوثاناً وطواغيت تُعبد من دون الله، والأحجار التي تُقصد للتعظيم والتبرك، والنذر والتقبيل، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالته، وكثير منها بمنزلة اللات والعزى، ومناة الثالثة الأخرى، أو أعظم شركتهن، وبها والله المستعان.

ولم يكن أحد من أرباب هذه الطويغت يعتقد أنها تخلق وترزق، وتُمت وتُحي، وإنما كانوا يفعلون عندها و بها ما يفعلوا نحوهم من المشركين اليوم عند طواغيتهم، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم، وسلكوا سبيلهم حدو القذة بالقذة، وأخذوا مأخذهم شبراً بشبر، وذراعاً بذراع، وغلب الشُّرك على أكثر النفوس لظهور الجهل وخفاء العلم، فصار المعروف منكراً، والمنكر معروفاً، والسُّنة بدعة، والبدعة سُنة، ونشأ في ذلك الصغير، وهرم عليه الكبير، وطُمت الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقلَّ العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر، واشتد البأس، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمّدية بالحق قائمين، ولأهل الشُّرك والبدع مجاهدين إلى أن يرث الله سبحانه الأرض ومن عليها، وهو خير الوارثين .

ومنها: جواز صرف الإمام الأموال التي تصير إلى هذه المشاهد والطواغيت في الجهاد ومصالح المسلمين، فيجوز للإمام، بل يجب عليه أن يأخذ أموال هذه الطواغيت التي تُساق إليها كلها، ويصرفها على الجند والمقاتلة، ومصالح الإسلام، كما أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموال اللات، وأعطاهما لأبي سفيان يتلَّهُ بها، وقضى منها دين عروة والأسود، وكذلك يجب عليه أن يهدم هذه المشاهد التي بُنيت على القبور التي اتُّخذت أوثاناً، وله أن يقطعها للمقاتلة، أو يبيعها ويستعين بأثما نحوها على مصالح المسلمين، وكذلك الحكم في أوقافها، فإن وقفها، فالوقف عليها باطل، وهو مال ضائع، فيُصرف في مصالح المسلمين، فإن الوقف لا يصح إلا في قربة وطاعة لله ورسوله، فلا يصح الوقف على مشهد، ولا قبر يُسرج عليه ويُعظَّم، ويُندَر له، ويُحج إليه، ويُعبد من دون الله، ويُتخذ وثناً من دونه، وهذا مما لا يخالف فيه أحد من أئمة الإسلام، ومن اتبع سبيلهم) . [زاد المعاد 3/429-430] .

وقال :

هدم مواضع الشرك التي تُتخذ بيوتاً للطواغيت، وهدمها أحبُّ إلى الله ورسوله، وأنفع للإسلام والمسلمين من هدم الحانات والمواخير، وهذا حال المشاهد المبنية على القبور التي تُعبد من دون الله، ويُتكرَّ بأربابها مع الله، لا يحلُّ إبقاؤها في الإسلام، ويجب هدمها، ولا يصحُّ وقفها، ولا الوقفُ عليها، وللإمام أن يقطعها وأوقفها لجند الإسلام، ويستعين بها على مصالح المسلمين، وكذلك ما فيها من الآلات، والمتاع، والندور التي تُساق إليها، يُضاهى بها الهدايا التي تُساق إلى البيت الحرام، للإمام أخذها كلها، وصرفها في مصالح المسلمين، كما أخذ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أموال بيوت هذه الطواغيت، وصرفها في مصالح الإسلام، وكان يفعل عندها ما يفعل عند هذه المشاهد، سواء من الندور لها، والتبرك بها، والتمسح بها، وتقبيلاها، واستلامها. هذا كان شركاً لقوم بها، ولم يكونوا يعتقدون أنها خلقت السموات والأرض، بل كان شيوهم بها كشرك أهل الشرك من أرباب المشاهد بعينه . [زاد المعاد 511/3-512] .

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

جمع وعناية

أبي وقاص عبد الله بن أحمد بن محمد بادحيدوح المرشدي

حضر موت اليمن

تم الفراغ منها يوم السبت الأول من شهر جمادى الأولى لعام ثلاثة وثلاثين وأربعمائة وألف

للهجرة النبوية